جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية
بالمنوفية

التناسب البليغ بين خواتيم آيات سورة الحج ومضامين تلك الآيات

كتبه الدكتور

أيمن حسن رجب عبد الغني

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

التناسب البليغ بين خواتيم آيات سورة الحج ومضامين تلك الآيات

كتبه الدكتور

أيمن حسن رجب عبد الغني

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

البريد الالكتروني Drayman1974@gmail.com

ملخص البحث

مما لا شك فيه أن الوقوف على وجه الارتباط والتناسب بين مضمون الآية القرآنية وما ختمت به تلك الآية أمر في غاية الأهمية لأنه يؤكد لنا حقيقة مهمة تتعلق بإعجاز النظم القرآني وتناسقه البليغ وهي: أن أجزاء الكلام في آيات القرآن الكريم يأخذ بعضها بأعناق بعض كمثل بناء محكم متلائم الأجزاء.

ولمَّا كانت خواتيم آي القرآن الكريم عامة تمتاز بأنها تقرر الغرض العام والخاص من الآية الكريمة أو تؤكده أو تحققه أو تجعله منتظماً مع ما قبلها أو ما بعدها في تناسق عجيب لا تكلف فيه ولا تعسف جاءت أهمية هذا النوع من المناسبات: وهو مناسبة خاتمة الآية لما تتضمنه الآية، وهو باب واسع يعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن الكريم وأسراره البلاغية وأوجه بيانه ولذا تفاوت العلماء في التماس المناسبات بين خواتيم الآيات وما تضمنته تلك الآيات فأدلى كل واحد بدلوه وبما أفاض الله به عليه من أنواره .. ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث لأحظى بشرف المشاركة في استنباط هذا النوع من المناسبات واخترت سورة مباركة من سور القرآن كنموذج تطبيقي ألا وهي سورة الحج فجمعت ثمانية وسبعين موضعاً بعدد آياتها من هذا النوع من المناسبات فجعلت لكل آية من آيات سورة الحج موضعاً مستقلاً بينت فيه – بعون الله وتوفيقه ثم الاستعانة بما ذكره أهل التفسير في ذلك – وجه التناسب البليغ بين خاتمة كل آية

ومضمونها حتى نؤكد على أن كل آية في القرآن الكريم قد ختمت بما يتلاءم مع مضمونها وهذا مما يدل يقيناً على ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة في كل صواب تضمنه هذا البحث، ونسأله العفو عن أي زلل أو قصور فالكمال له (ﷻ) ولكتابه الكريم.

الكلمات المفتاحية: التناسب – البليغ – خواتيم – آيات – سورة الحج – مضامين.

The Eloquent Proportionality Between the Endings of the Verses of Surat Al-Hajj and the Contents of those Verses

Wrote it by
Dr. Ayman Hassan Ragab Abdul-Ghani
Assistant Professor, Department of Interpretation and Quranic Sciences
College of Fundamentals of Religion and Da`wah in Monufia
E mail: Drayman1974 @gmail.com

Research Summary

There is no doubt that stating the connection and proportionality between the content of the Qur'anic verse and what that verse sealed is very important because it confirms to us an important fact related to the miracle of the Qur'anic systems and its eloquent coherence: that the parts of speech in the verses of the Noble Qur'an take some of them by the necks of each other as an example of a tight construction Fit parts.

And since the endings of the verse of the Noble Qur'an in general are distinguished by the fact that they determine the general and specific purpose of the noble verse, confirm it, verify it, or make it consistent with what came before or after it in a wondrous harmony that is neither costly nor arbitrary, the importance of this type of occasion came: It is an occasion to conclude the verse for what it contains The verse, which is a broad chapter that depends on the interpreter's diligence and the amount of his taste for the miracle of the Noble Qur'an, its rhetorical secrets and aspects of its rhetoric. Therefore, scholars differed in seeking the occasions between the endings of the verses and what those verses contained,

so each one made an exchange for what God has bestowed upon him of his lights **..** Hence the importance of this research came to have the honor of participating in devising this kind of occasion and I chose a blessed surah from the Surahs of the Qur'an as an application model, namely Surat Al-Hajj. With the help and success of God, then seeking the help of what the people of interpretation have mentioned in that - direct the eloquent proportionality between the conclusion of each verse and its content, so that we can confirm that each verse in the Noble Qur'an has been sealed in a manner consistent with its content. Every rightness was included in this research, and we ask him to pardon any mistakes or deficiencies. Perfection is his - glory be to Him - and His Holy Book.

Key Words: Eloquent – Proportionality - Endings - Verses - Surat Al-Hajj – Contents.

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله (ﷺ) بعثه الله تعالى في الأميين ليتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين.

وبعد،،،

فإن معرفة وجه الارتباط والتناسب بين مضمون الآية القرآنية وما ختمت به تلك الآية لأمر في غاية الأهمية حيث إنه يؤكد على أن أجزاء الكلام في آيات القرآن الكريم يأخذ بعضها بأعناق بعض كمثل بناءٍ محكم متلائم الأجزاء.

ولمَّا كانت خواتيم آي القرآن الكريم عامة تمتاز بأنها نقرر الغرض العام والخاص من الآية الكريمة أو تؤكده أو تحققه أو تجعله منظَّماً مع ما قبلها أو ما بعدها في تناسق عجيب وتوقيع لطيف لا تكلف فيه ولا تعسف جاءت أهمية هذا النوع من المناسبات وهو: مناسبة خاتمة الآية لما تتضمنه الآية.

هذا وقد جاءت أهمية هذا البحث: "التناسب البليغ بين خواتيم آيات سورة الحج وما تضمنته تلك الآيات" وتكمن أهمية هذا البحث من وجوه عديدة منها:

(أ) صلة بكتاب الله تعالى الذي حاز قصب السبق في فصاحة الألفاظ وبلاغة النظم والتراكيب ووصل إلى تمام الإتقان والوفاء بحق البيان.

(ب) لفت الأنظار إلى هذا النوع تحديداً من أنواع المناسبات وهو: مناسبة خاتمة الآية لما تتضمنه الآية – فإن هذا باب واسع يعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه ولذا تفاوت العلماء في التماس المناسبات بين خواتيم الآيات وما تضمنته تلك الآيات فأدلى كل واحد بدلوه وبما أفاض الله به عليه من أنواره...، فأحببت أن أحظى بشرف المشاركة في استنباط هذا النوع من المناسبات ووقع اختياري على سورة مباركة من سور القرآن الكريم ألا وهي سورة الحج كنموذج تطبيقي يتجلى فيه بوضوح

الارتباط التام بين ما ختمت به كل آية من هذه السورة وبين ما ورد في مضمونها...

(ج) التأكيد على أن كل آية في القرآن الكريم قد ختمت بما يتناسب ويتلاءم مع مضمونها وهذا مما يدل يقيناً على ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني...

وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي:

مقدمة: بينت فيها أهمية هذا الموضوع.

تمهيد: ويشتمل على التعريف بأهم المصطلحات الواردة في البحث مع تعريف موجز بسورة الحج.

ثم أمعنت النظر والتأمل في خواتيم آيات سورة الحج ومضامينها لاستنباط التناسب البليغ بين خاتمة كل آية بقدر استطاعتي في جمع شتات هذا الموضوع مستعيناً بالله تعالى ثم مسترشداً بما ذكره أهل التفسير في ذلك – وقد تراءى لي أن أجعل لكل آية من آيات سورة الحج موضعاً مستقلاً أُبين فيه وجه التناسب البليغ بين خاتمة كل آية ومضمونها حتى بلغ عدد تلك المناسبات من هذا النوع ثمانية وسبعين موضعاً على عدد آيات تلك السورة الكريمة حتى تتم الفائدة المنشورة من هذا البحث.

ثم الخاتمة: بينت فيها أهم النتائج– فهرس المراجع.

وقد حرصت على إعطاء كل جزئية في هذا البحث حقها في الدراسة وتوخيت جودة التنظيم وحسن التعبير.

والفضل لله (ﷻ) وحده في كل صواب تضمنه هذا البحث، أما القصور فينسب إليَّ وحدي والكمال له (ﷻ) وحده، ولكتابه الكريم.

دكتور/ أيمن حسن رجب عبد الغني
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

التمهيد

التعريف بأهم المصطلحات الواردة في عنوان البحث

أولا: المقصود بالتناسب والمناسبة بإيجاز

والائتلاف والتلفيق ... والمناسبة لغة: المقاربة والمشاكلة، ومنه النسيب وهو القريب المتصل، ومنه المناسبة في لعلة في باب القياس وهي الوصف المقارن للحكم لأنه إذا حصلت مقارنته للحكم ظُنَّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، كالإسكار في الشراب على التحريم، والمناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول.

واصطلاحاً: المناسبة هي وجه الارتباط بين الآية والآية التي تليها، والسورة والسورة التي تليها، وفاتحة السورة وخاتمتها ونحو ذلك. وهي وجه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض(١).

ثانيا: أهمية هذا العلم: وقد أكد العلماء كثيراً على أهمية هذا العلم وفضله ومكانته فهو علم شريف تحرز به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول"(٢).

وقال ابن العربي: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم"(٣).

---

(١) ينظر في ذلك: البرهان في علوم القرآن للزركشي(٣٥/١) بتحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الفكر – بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ– وأيضاً: شروح التلخيص للقزويني – ابن يعقوب المغربي – بهاء لدين السبكي (٣٠١/٤) ط دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣٥/١).

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٠٨/١) المطبعة الأزهرية بمصر ط ثانية ١٣٤٣هـ + ط الثالثة ١٣٧٠هـ مصطفى البابي الحلبي.

وقال الرازي: "إن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك"(١).

ثالثا: أنواع المناسبات:

المناسبات في القرآن الكريم أنواع كثيرة منها:

(أ) المناسبة بين الآية والآية التي تليها: مثل قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾(٢) حيث ذكر محاسبته على الحسنات فناسب أن يذكر محاسبته على السيئات فقال: "﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(٣).

(ب) المناسبة بين أول السورة وخاتمتها: مثل قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٤) وفي آخرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾(٥).

(ج) المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة السورة التي تليها: مثل قوله تعالى في آخر سورة الإسراء: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾(٦) وفي أول سورة الكهف التي تليها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾(٧).

---

(١) تفسير الرازي(١٢٨/٧) دار إحياء التراث العربي بيروت ط الرابعة.

(٢) سورة الزلزلة آية: ٧.

(٣) سورة الزلزلة آية: ٨.

(٤) سورة البقرة آية: ٣.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٨٥

(٦) سورة الإسراء آية: ١١١.

(٧) سورة الكهف آية: ١.

(د) مناسبة خاتمة الآية لما تضمنته الآية: وهذا النوع هو محل بحثنا وبالله التوفيق – في سورة الحج– ومنه على سبيل المثال ما ذكره بعض المفسرين في قوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1] وبين ما تضمنته الآية: يحتمل أن تكون هذه الجملة تعليلاً معنوياً للأمر بنبذ العهد على عَدْل (أي قصد) وهو إعلامهم، ويحتمل أن تكون مستأنفة سيقت لذم من خان رسول الله (ﷺ) ونقض عهده[2].

(هـ) ومنه أيضاً: المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة: ومثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] أن قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أن قوله تعالى: "واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون" تأكيد وقيل: كُرِّر لتغاير متعلق التقويين: فمتعلق الأولى إذاً الفرائض لاقترانه بالعلم، والثانية: ترك المعاصي لاقترانه بالتهديد والوعيد[4]...

رابعًا: المراد بالخواتيم:

الخواتيم جمع خاتمة وهي نهاية الشيء، وقد أطلق البلاغيون على نهاية الآية الكريمة إذا ناسبت صدر الآية في المعنى: "تشابه الأطراف" وجعلوه قسماً من مراعاة النظير التي هي من أنواع البديع المعنوي وعرفوا "تشابه الأطراف"

---

(١) سورة الأنفال آية: ٥٨.

(٢) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٤٢٩/٣) ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.

(٣) سورة الحشر آية: ١٨.

(٤) الدر المصون (٢٩٩/٦).

بقولهم: "أن يختم الكلام بما يناسب ما قبله في المعنى إما لكون ما خُتم به كالعلة لما بدئ به أ والعكس أو كالدليل عليه أو نحو ذلك"(١).

(١) شروح التلخيص (٣٠٣/٤).

خامسًا: تعريف موجز بسورة الحج.

مما هو جدير بالذكر أن العلماء تعددت آراؤهم في بيان زمان ومكان نزول سورة الحج: فمنهم من قال إنها مكية كلها، ومنهم من قال إنها مدنية كلها[١].

وقيل: مكية سوى ثلاث آيات[٢] وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ﴾ إلى قوله تعالى: "**عذاب أليم**"[٣].

وقيل: إنها مدنية[٤] غير أربع آيات: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ... يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴾[٥] فإنها مكيات.

والذي عليه الجمهور: أن السورة مختلطة فيها مكي ومدني وإن اختلف في التعيين[٦]، فقد ورد فيها: "**يأيها الناس**" وهذا وارد في المكي، كما ورد فيها: "**يا أيها الذين آمنوا**" وهذا وارد في المدني.

وعدد آيات السورة: ثمان وسبعون آية.

وأما وجه مناسبة سورة الحج لسورة الأنبياء قبلها فلا تحتاج إلى بيان فإنه لمَّا ختمت سورة الأنبياء بالدعوة إلى لاتوحيد وإفراد الله (ﷻ) بالعبودية في قوله

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٢/١) بتحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم – نشر دار التراث – القاهرة ط ثالثة – وأيضـــا: روح المعاني للآلوســـي (٤٠٣/٥) ط (٣٤٩/٦) ط ثانية ١٤٠٣هـــ– ١٩٨٣م دار الفكر للطباعة والنشر.

(٢) البحر المحيط (٣٤٩/٦) – وروح المعاني (٤٠٣/٥).

(٣) سورة الحج آية (١٩–٢٥).

(٤) تفسير القرطبي (١/١١) ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٦٥–١٩٦٦م، وتفسير أبي السعود (٩١/٦) ط دار إحياء التراث العربي بيروت – وأيضاً: فتح القدير للشوكاني (٤٣٤/٣) ط دار الفكر للطباعة والنشر.

(٥) سورة الحج آية (٥٢–٥٥).

(٦) روح المعاني للآلوسي (٤٠٣/٥) – وأيضاً البحر المحيط(٣٤٩/٦) – والقرطبي (١/١١)

تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[1]، وكذلك الإخبار بأن إرساله (ﷺ) رحمة للعالمين: "**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**"[2]، لما ختمت سورة الأنبياء بهذا كله ناسب ذلك أن تفتتح سورة الحج بأمر المكلفين جميعاً أن يتقوا الشرك ومخالفة الدين كي يسلموا من أهوال القيامة فقال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ** ﴾[3] الآيات[4].

وسميت بسورة الحج لاشتمالها على أصل وركن وجوب الحج وهو الطواف إضافة إلى ذكر أمور أخرى تتعلق به كالوقوف بعرفة والحلق والنحر كما ورد فيها ذكر أمر الله لإبراهيم (عليه السلام) بالدعوة إلى حج بيت الله الحرام وذكر بعض فضائل الحج ومنافعه وتقريع الذين يصدون عن سبيل الله ومسجده الحرام[5].

وأقول: إن السورة تسمى دائماً بأعزب شيء فيها لأن أداء الحج كما شرع الله يثمر تهذيب النفس وتربيتها على الامتثال لطاعته والاستجابة لأوامره (سبحانه وتعالى) بالإضافة إلى حديث السورة عن البعث والجزاء وأهوال القيامة ودفع الناس وأمرهم بتقوى الله تعالى والدلائل على نفي الشرك وتوبيخ المشركين وتذكيرهم بعاقبة الأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالأعراض والكفر فحل بهم العذاب

---

(١) سورة الأنبياء آية (١٠٨-١٠٩).

(٢) سورة الأنبياء آية (١٠٧).

(٣) سورة الحج آية: ١.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي مج٤، ج١٧، ص(٧٢) ، ط ونشر دار الفكر ودار الكتاب اللبناني بيروت (١٣٧٥/١٩٥٦م)

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٩/١٧) ط الدر التونسية للنشر – وأيضاً: تفسير القاسمي (٤٣٢٠/١٢) ط عيسى الحلبي – تعليق وتصحيح/ محمد فؤاد عبد الباقي.

مع بيان أن التمكين والنصر للمؤمنين الموحدين بعد إذن الله تعالى لهم بقتال الكفرة والمعتدين...

وقد وردت آثار كثيرة في بيان فضل سورة الحج منها: أن رسول الله (ﷺ) قال: "أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين"(١).

هذا، وما أريد أن أؤكد عليه هنا: أن خاتمة كل آية من آيات سورة الحج قد ختمت بما يتناسب ويتناغم ويتلاءم مع مضمونها تماماً.

وقد بينت ذلك في ثمانية وسبعين موضعاً بعدد آيات تلك السورة الكريمة.

وتفضيل ذلك فيما يلي – بعون الله وتوفيقه–.

الموضع الأول: يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: نلحظ هنا أن هذه الآية قد ختمت بقوله تعالى: ﴿زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ وهذا يتناسب تماماً مع صدر الآية حيث جاءت هذه الخاتمة في موضع العلة والسبب للأمر بالتوقى(٣) أي أنها جملة تعليلية للأمر بالتقوى، فإن ذكر بعض العقوبات الهائلة للساعة وملاحظة ذلك الهول وفظاعته لا ملجأ منه للإنسان سوى التذرع بلباس التقوى وملازمته لينجو من العذاب المهين ولذلك صدر الخاتمة بحرف التوكيد إنَّ حتى لا يتردد السامع في قبول الخبر أو يتشكك في حدوثه(٤).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٥١/٤) المكتب الإسلامي للطباعة والنشر – دار صادر للطباعة بيروت وفتح القدير (٤٣٤/٣).

(٢) سورة الحج آية: (١).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٣/١٣) ط أولى – مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الدكن. الهند.

(٤) تفسير أبي السعود(٩١/٦).

وأضيف إلى ما تقدم: أنه على الرغم من أن هذه الآية وما بعدها تتحدث عن زلزلة الساعة وأهوالها- ومع أن أهوال القيامة قد ذكرت في مواضع أخرى من النظم الكريم – إلا أننا نلحظ أن هذه الآية من سورة الحج انفردت بتلك الخاتمة التي لم ترد في غيرها من المواضع فوصف الزلزلة بالعظمة وإطلاق الذهن للتفكير في كينونة ذاك المتحدث عنه بالتعبير بلفظ شيء- الذي يدل على التفخيم والتهويل لأمر تلك الزلزلة الدالة على الاضطراب والاهتزاز العنيف.

الموضع الثاني: يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(١).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: نلحظ هنا أن هذه الآية ختمت بقوله تعالى: "**ولكن عذاب الله شديد**" وهذا مناسب تماماً لمضمون الآية حيث تقدم ذكر الساعة وأهوالها في الآية الأولى وذكر زلزلة الساعة وعظم شأنها ثم أردفها في هذه الآية بذكر أحوال الناس في ظل هذا الموقف العظيم وبين أحوالهم بالتفصيل بعد الإشارة إلى ذلك على وجه الإجمال سابقًا، فهذا المشهد العظيم حافل بكل رعب وهول يجعل لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، بل بلغ من شدة الهول أن تذهل أي تنشغل كل مرضعة عما أرضعت.

فمع أن هذه المرضعة من شأنها الإرضاع إلا أنها من هول ما ترى في هذا اليوم تذهل عن رضيعها لغير فطام، وأيضًا تضع الحامل ولدها في هذا اليوم العصيب لغير تمام أشهر الحمل من شدة وهول ما ترى... ومن ثم ترى الناس السكر يبتدي في أحوالهم وما هم بسكارى في ذاك – أي في حقيقة الأمر- ولكن العذاب شديد حتى أنه أرهقهم وطير عقولهم وألبابهم وأذهب تميزهم فكانوا كحال

(١) سورة الحج آية (٢).

السكارى يتصرفون بلا عقل أو حكمة ثم أنَّ وصف عذاب الله بالشدة مناسب لما ذكر أول الآية من أهوال الساعة وشدائدها وما يصيب الناس فيها ولهذا نجد هذه الخاتمة قد ورد فيها إضافة العذاب إلى الله ثم وصفه بالشدة وهذا يتلاءم مع موضوع السورة الذي يتحدث عن التقوى ويأمر بها ويعرض لحال المجادل وينكر عليه ففي ذكر العذاب مضافاً إلى الله تعظيماً وتهويلاً للأمر وإيضاحاً لقوته ورهبته وتأكيداً له حتى لا يظن فيه سهولة أو كذباً فلا يأبه له، ولهذا أيضاً وصف بعد الإضافة بالشدة لأن عذاب الله لا يكون إلا شديداً فالعذاب معلوم أنه لا يسمى عذاباً إلا إن كان ذا وقع وألم على المرء فكيف إذا كان عذاباً من الله وكان هذا العذاب للمجادل والكافر المنكر للبعث ولأمر الساعة والرافض للتقوى(١).

وما أجمل تعقيب أبي حيان (رحمه الله) على ذلك: حيث ذكر أن الآية ختمت بأعظم الأهوال وهي شدة العذاب بعد ذهول المرضع ووضع الحامل وسكر الناس فهذا كله هين نسبة إلى عذاب الله الذي لا هوان فيه...(٢)

الموضع الثالث: يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾(٣).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يجدر بنا بداية أن نقف على سبب نزول تلك الآية حتى ندرك وجه ومناسبة ختمها بقوله: "**ويتبع كل شيطان مريد**" فنقول وبالله التوفيق: "أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: "**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد**" قال: "نزلت في النضر بن الحارث، وكان

---

(١) تفسير أبي السعود (٩٢/٦) – وحاشية الشهاب على البيضاوي(٢٨٢/٦) ط دار صادر – بيروت (بتصرف).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان(٣٥١/٦).

(٣) سورة الحج آية (٣).

جدلاً إذ كان يقول الملائكة نبات الله، والقرآن أساطير الأولين والله (ﷻ) غير قادر على إحياء من بلي وصار تراباً"(١).

فإن هذا التذييل جاء ملائماً ومناسباً لسبب نزول الآية حيث إن الآية نزلت في شأن طائفة من الناس وقفوا من أمر هذه الدعوة موقف المجادل المعاند لا عن علم وأصالة فكر بل عن جهل وتقليد أعمى فلم يتأثروا ولم يخافوا فهم عُمْى القلوب صُم الآذان، خامدوا العواطف يتبعون كل شيطان عاتٍ متحير يزين لهم الباطل ويُحسِّنه سواء أكان المقصود بالشيطان إبليس وأعوانه أو كل من زين الباطل ودعا إليه من الإنس أو الجن فناسب ذلك الجدل المبني على الجهل والتقليد والانقياد للشيطان أن تختم الآية بقوله: "**ويتبع كل شيطان مريد**" على أن الشيطان عبارة عن المضلِّ المغوي على الإطلاق...

أي أن هذا النوع من الناس المجادل يجادل في الله بدون أن يملك سنداً من علم أو ومعرفة لديه ثم أنه يتبع في مجادلته في جل أموره الباطلة كل شيطان عاتٍ متمرد متجدد للفساد مستعد ومتهيئ له فكان التعبير باتباعه لكل شيطان مريد ملائم لكونه مجادلاً متطاولاً على الحق والهدى، مخالفًا للخير خالياً من كل معانيه وهذا هو سبيل المجادل بل لن يكون مجادلاً في الله إلا إذا كان هذا الطبع موافقًا وملائماً له ومطابقًا لما تأمل من الشر في نفسه فكان بهذا سائراً على مسيرة الشيطان المريد، وإذا كان هذا وصفًا للشيطان وذمًا له فهو من باب آخر ذماً

(١) أسباب النزول للسيوطي(٢١٩) المكتبة التوفيقية – الحسن تحقيق/ ياسر صلاح عزب. وأيضاً: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري مج٥ ص٦٤ ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ضبط وتخريج الشيخ زكريا عميران.

لمتبعه الذي ورد السياق لذمه فالنفس تتبع ما تهواه وتألفه وغالباً يكون إلفها لجنس ما يعتمل في داخلها[1].

ونلاحظ أن وصف الشيطان بالمرد وهو العتو ومخالفة الحق والخلو من الخير ملائم جداً للشيطان لكونه متفرغاً للشر لا عمل له سواه فلا عمل للشياطين إلا غواية بني آدم وإضلالهم وصرفهم عن الحق ... وقد جاء بمريد على صيغة فعيل للمبالغة في ذم هؤلاء المجادلين المعاندين الذين وضعوا من شأن أنفسهم باتباع ما لا شك في دناءته ببعده عن الخير، وبذلك خُتمت الآية بما يلائم ويناسب مضمونها تماماً.

الموضع الرابع: يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: لمَّا ذكر الله تعالى في الآية السابقة أن ذاك المجادل يتبع في جداله وفي جُلِّ أموره كل شيطان مريد وصف ذاك الشيطان بصفة أخرى، وهي أنه من تولى ذاك الشيطان فإنه يضله عن طريق الحق، ويبغض إليه الطاعات ويعميه عن سبيل الخير ولما كان الشيطان مضلا والضلال بطبيعته مكروهًا إلى كل شخص بيّن تعالى أن هذا الضلال لا هدى معه أصلاً. فقال: "**ويهديه إلى عذاب السعير**": فإن كان هناك هداية فما هي إلا إلى العذاب ولا يخفى ما في النص الكريم من مزيد السخرية والاستهزاء بهذا المجادل المتبع

---

(١) تفسير أبي السعود (٩٢/٦) بتصرف – وأيضًا: فتح القدير (٤٣٦/٣) – وأيضًا: نظم الدرر(٧/١٣) بتصرف ط بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية تحت مراقبة د/ محمد عبد المعين خان مدير دائرة المعارف العثمانية – مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند.

(٢) سورة الحج آية: (٤).

للشيطان حيث إنه يضله ويقوده إلى الهلاك فإذا ما سمع هذا المجادل قوله: "**ويهديه**" استعد للخير ولكنه يفاجأ بقوله بعد هذا "**إلى عذاب السعير**" فنزول تلك الفرحة وينطفئ ذاك البصيص من الأمل الذي لاح له ابتداء عند سماع الآية فيغرق في أذيال خيبته وخسرانه وخزيه ثم أن هناك تناسق وتوافق رائع بين التعبير بالهداية والتعبير بالعذاب حيث إنهما لا يتفقان ولكن النظم وضعهما معاً ليكون في هذا إمعان في السخرية والاستهزاء ولإيضاح عظم قيادة ذاك الشيطان لمتبعيه إلى الهلاك والعذاب وعظم إتباعهم له(١).

وعلى ذلك نقول ختمت الآية بهذا التذييل: للدلالة على شدة دفع هذا الشيطان لمتبعه إلى العذاب ولإيضاح شدت إتباع الآخر له حتى أن أمره سيؤول إلى العذاب ونهايته ستكون إليه حيث إن حرف الجر "إلى" دال على غاية الشيء ونهايته ونهاية هذا المجادل ستكون إلى ما اختار وأراد لنفسه وهو عذاب السعير..

الموضع الخامس: يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما يدل على أحقية البعث وأحقية الساعة فذكر أطوار خلق الإنسان ونشأته في مراحله المختلفة كدليل يُردُّ به على المجادلين في شأن البعث وحقيقة اليوم الآخر، فقال تعالى: "**يا**

(١) ينظر: تفسير أبي السعود(٦/٩٣) – فتح القدير(٣/٤٣٦) ونظم الدرر(١٣/٨) بتصرف.
(٢) سورة الحج آية: (٥).

أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث" أي إن كان لديكم شك في إمكان البعث ودخوله في قدرتنا افنظروا في خلق أنفسكم "**فإنا خلقناكم من تراب**" أي خلقنا أباكم آدم (عليه السلام) من تراب وفي خلقه من تراب خلق لنا "**ثم نطفة**" وهو المني "**ثم من علقة**" وهو الدم الجامد "**ثم من مضغة**" وهي لحمة قليلة بقدر ما يمضغ "**مخلقة**" أي تامة الخلق "**وغير مخلقة**" السقط أو التي لم تصور بعد "**لنبين لكم**" كمال قدرتنا بتصريف أطوار خلقكم، "**ونقر في الأرحام ما نشاء**" فلا يكون سقطا، أي: ونسقط بعضها فلا يتم حمله "**إلى أجل مسمى**" وهو وقت الولادة "**ثم نخرجكم طفلاً**" أي نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً وهو وقت الولادة "**ثم نخرجكم طفلاً**" في الأصل فلا يثنى ولا يجمع أو المراد نخرج كل واحد منكم طفلاً، "**ثم لتبلغوا أشدكم**" والأشد هو كمال العقل "**ومنكم مَنْ يتوفى**" يعني قبل بلوغ الأشد "**ومنكم من يرد إلى أرذل العمر**" أي أخسه وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل "**لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً**" يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها لا علم له ولا فهم، "**وترى الأرهامدة**" لا تنبت شيئًا ميتة يابسة كالنار إذا طفئت "**فإذا أنزلنا عليها الماء**" ماء المطر "**اهتزت**" أي اهتز بناتها لكثرته وقوته "**وربت**" ارتفعت وقيل: انتفخت "**وأنبتت**" أي أخرجت "**من كل زوج بهيج**" أي من كل صنف حسن ولون مستحسن، والبهجة: الحسن(١).

– فمما هو جدير بالذكر هنا في سرّ ختم الآية بقوله: "**وأنبتت من كل زوج بهيج**" أن الله تعالى ذكر في هذه الآية الأمرين اللذين يدلان على أحقية البعث وأحقية الساعة فقال: "**يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة**": فتحدثت الآية عن خلق الإنسان من التراب وإنبات النبات

(١) زبدة التفسير من فتح القدير د/ محمد سليمان الأشقر ص(٤٣٣) بتصرف – ط دار المؤيد للنشر والتوزيع – ط ثانية ١٤١٦هـ –١٩٩٦م.

منه أيضاً حتى قال تعالى: "**وأنبتت من كل زوج بهيج**" فأخر الدليل الكوني لكونه حسياً مشاهداً وكان في هذا الدليل موافقة وملائمة للدليل الأول حيث إن في كليهما إخراجاً للحي من التراب ثم إنماءه وازدهاره ومن ثم تنوعه واختلافه فالناس منهم من يحيا عمراً طويلاً ومنهم من يتوفى... والنبات يخرج أنواعاً عديدة وأصنافاً بهيجة سارة للناظر، وطبيعي جداً أن يتلاءم التعبير بالإنبات والإحياء مع الوصف بالبهجة ولجمال فقمة الجمال والرونق والبهجة تظهر لدى تفتح الأرض وانشقاقها بالنبات بعد الهمود والسكون.

الموضع السادس: يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾[1]

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: بعد أن ذكر الله تعالى في الآية السابقة دليلين على أحقية البعث وأحقية الساعة وهما خلق الإنسان من تراب ومراحل وأطوار خلقه... ثم إنبات النبات بنزول المطر على الأرض واهتزازها بعد همودها... ذكر في هذه الآية أن هذه السنن كائنة بسبب أنه (ﷻ) هو الحق ونتيجة لأنه الحق وأنه محيي الموتى ثم أنه قادر على كل شيء فلا يستعظم الذهن ما يسمع من القول فيشك فيه لأنه تعالى لا يعجزه شيء ولا يمتنع عنه أمر بل هو قادر على كل شيء قادر على إحياء الموتى وقادر على البعث فهو الحق وقوله حق فكأن الخاتمة هنا أتت مصدقة لأول الآية ومثبتة لوسطها ومؤكدة للآية قبلها ومؤيدة لها ولهذا جاءت هذه النتائج متعاطفة بحرف العطف "ألواو" فعطف "**وأنه على كل شيء قدير**" على قوله: "**وأنه يحيى لموتى**" فاتفقت الجملتان في الخبرية حيث أخبرتا عن مظاهر قدرة الله وآثار عظمته وقد استخدم السياق حرف التوكيد "أن" في الجملتين كلتيهما وإن كان الخبر "المسند" في الأولى جملة اسمية وفي الثانية

(١) سورة الحج آية: (٦).

جملة فعلية.. لأن قدرة الله ثابتة ودائمة على كل حال وفي كل وقت وكذلك هو قادر على إحيائه للموتى وهذا الإحياء متجدد حادث فكل ما هو ميت فإن الله يحييه حتماً لا شك في هذا سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو أرضاً ونلحظ أن المسند إليه في الجملتين واحد وهو الضمير المتصل "بأن" ثم إن الوصف بالقدرة في آخر الآية كان مسبوقًا بما يدل على أن هذه القدرة شاملة ومحيطة لكل شيء في الوجود والخلق بلفظ: "كل شيء" ونلحظ وجود حرف التأكيد أن المصدر في أول الخاتمة ووجود الواو حتى لا يحتمل الأمر أي شك أو ذبذبة.

الموضع السابع: قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾[1]

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يتضح بجلاء لكل متدبر هنا ما بين أول الآية وآخرها من مناسبة وعلاقة وصلة وطيدة فإن الله تعالى يبعث من في القبور من الأموات ويحييهم من جديد للحساب بعد أن تقوم الساعة وتحين والبعث لا يطلق إلا على الإحياء بعد الموت والاندثار والفناء فكل ما يجد بعد هذا يسمى بعثًا والقبر مكان لكل ما يفنى ويندثر حيث إن باطن الأرض غالبًا يكون مقراً ومأوى له، ونلاحظ أن هذه الخاتمة "**وأن الله يبعث من في القبور**" لم ترد إلا في هذا الموضع فقط من كتاب الله تعالى لأنه مناسب لمضمون الآية الذي يؤكد على قيام الساعة وأنها لا ريب فيها ولا تردد وأن من لوازمها بعث من في القبور ليجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر[2].

الموضع الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[3].

---

(١) سورة الحج آية: (٧).

(٢) زبدة التفسير من فتح القدير (٤٣٤ بتصرف).

(٣) سورة الحج آية: (٨).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: مما هو متمم للفائدة: أن نبين أن هذه الآية وردت في شأن طائفة من الناس وهم المقلدِّين (بفتح اللام) أو المتبوعين الذين يضلون الناس عن سبيل الله ويجادلون في اللع بغير علم ضروري (ولا هدى) هو الاستدلال، والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة (ولا كتاب منير) وحيٌ مظهرٌ للحق أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعي بقصد إضلال الناس عن سبيل الله، فناسب ذلك الجدل أن تختم الآية بقوله: "**ولا هدى ولا كتاب منير**" لأنه لم يُبني على علم ضروري ولا نظر صحيح ولا وحي مظهر للحق، والمعرفة للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة(١).

وأضيف إلى ما تقدم في مناسبة ختم هذه الآية بقوله تعالى: "**بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير**" لأن الجدال بعد الدلائل والبينات السابقة يعد غريباً مستنكراً فكيف إذا كان جدالاً بغير علم ولا معرفة ولا يستند إلى دليل أو وحي ينير الطريق ويفتح القلب والعقل ويظهر الحق ويهدي إلى الطريق المستقيم، طريق اليقين، فكان التعبير بالمجادلة في الله يناسب كونها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وإنما هو جدال بالباطل والضلال لأن الذي لديه علم حق أو هدى أو كتاب منير لا يجادل في خالقه فإن اجتمع الجهل والضلال والجدال فهذا قمة البلاء وقد تدرجت الخاتمة في الترتيب فبدأ بالعلم ثم بالهدى الأعلى شأنًا ثم بالوحي أو الكتاب المنزل من السماء الذي لا يعلو عليه قول.

الموضع التاسع: يقول تعالى في الآية التاسعة من سورة الحج: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود(٤/٣٧٠) بتصرف. ط دار الكتب العلمية بيروت ط١ (١٤١٩هـ).

(٢) سورة الحج آية: (٩).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن هذا المجادل المتكبر المعاند "ثاني عطفه" أي لاوي جانبه وعنقه وهذا كناية عن كبره عن الحق واحتقاره للخلق فقد فرح بما معه من العلم غير النافع واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق "**ليضل**" الناس أي: ليكون من دعاة الضلال ويدخل تحت هذا كل من يدعو إلى الكفر والضلال ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: "**له في الدنيا خزي**" أي يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة وهذا من آيات الله العجيبة فإنك لا تجد أحداً يدعو إلى الضلال أو الكفر إلا وله من المقت بين العالمين واللعنة والبغض والذم ما هو حقيق به وكل بحسب حاله. ثم قال "**ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق**" أي نذيقه حرّها الشديد وسعيرها البليغ"(١).

ويبرز وجه مناسبة ختم الآية بقوله: "**له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق**" في أن هذا المجادل المتكبر المعاند لا يكتفي بضلاله وكفره وحده بل يكون سبباً في ضلال غيره ويمنعه عن طريق الهداية ليزداد ويتمادى في ضلاله وغيه وهذا الضال المعاند لا بد له من العقوبة الجسيمة والعاقبة الوخيمة ومن القمع الشديد ولذا قال: "**له فيالدنيا خزيٌ**" جزاء تكبره وتعجرفه حتى يتحطم هذا الشريف الذي يظهره ويتخذه له قناعاً، وعذاب الآخرة أشد وأنكى وأوجع فقال: "**ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق**" فكانت الخاتمة في هذه الآية جزاء وعقاباً لما ورد في صدرها وجاء التعبير بإذاقة العذاب على سبيل التهكم والاستهزاء والوعيد لهذا المجادل المعاند وتأكيداً على وقوع ذلك العذاب به وإحاطته إياه حتى يشعر بآلامه ويذوق شدته وحسرته جزاء صنيعه وطغيانه وضلاله وإضلاله لغيره.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ السعدي (٤٨٤) بتصرف ط مؤسسة الرسالة.

الموضع العاشر: يقول الله تعالى في الآية العاشرة من سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾(١).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: بعد أن أخبرنا الله تعالى بالعقوبة الجسيمة والعاقبة الوخيمة للمعاند المجادل بالباطل وأن له نكالاً وخزياً في الدنيا وسيذيقه الله في يوم القيامة عذاب الحريق، ونجد السياق فجأة يتحول من ذاك الوعيد المنظور إلى لواقع المشاهد المحسوس بالتحول من الحكاية إلى الخطاب "**ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد**" فكأنه يتلقى اللحظة التقريع والتوبيخ مع العذاب والحريق وذلك العذاب كان واقعاً به لأنه ليس بظلام للعبيد، فيعاقب بعض عبيده على جرم.. ويعفو مثله عن آخرين أو يحمل ذنب مذنب على غير مذنب فيعاقبه به، ومن ثم يعفو عن صاحب الذنب، وإنما لا يعاقب أحداً إلا على جرمه ولا يعذب أحدهم ويغفر للآخر إلا بسبب استحق به مغفرته فكانت الخاتمة بهذا بمثابة التعليل والبيان لأول الآية قبلها ثم إنها تدفع ما قد يرد على السامع من ظن بأن الله قد عذب هذا المجال وبالغ في تعذيبه أو يستعظم العذاب الواقع بهذا المجادل فيأتيه الرد سريعاً: "**ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد**" ولا يخفى علينا الدقة المتناهية في التعبير القرآني في توافق ظلاَّم وصيغة العبيد حيث إن لفظ العبيد يشعر بالذل والضعف والمسكنة وقلة القدرة وبالتالي احتمال وقوع الظلم عليهم إضافة إلى الإشعار برحمة الله تعالى فهو العادل وهو الحق وهو الرءوف الرحيم ورحمته تشمل عباده كسائر مخلوقاته فلا يظن ظان وقوع الظلم منه (ﷻ)، وتعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً(٢).

---

(١) سورة الحج آية: (١٠).

(٢) ينظر في ذلك: تفسير الطبري(٩٣/١٧) ط دار المعرفة – بيروت ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م. وأيضاً: تفسير أبي السعود(٩٧/٦) بتصرف.

وأضيف إلى ذلك: أنه ناسب ختم الآية بقوله: "**وأن الله ليس بظلام للعبيد**" بل يعطي كل واحد ما يستحقه دون أدنى جور أو ظلم(١)، فقد أفادت الآية أن العذاب الواقع بذلك المجادل المعاند بسبب ما قترفته يداه من الأعمال وختمت بالتذكير بأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد بل يجازي كلا بحسب عمله إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر.

الموضع الحادي عشر: يقول الله تعالى في الآية (١١) من سورة الحج: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: فهذا الذي يعبد الله تعالى على حرف ويترقب لما يحدث له من ربح وخسارة ليرى أيثبت على دينه أم يتزعزع وينقلب ينال جزاء من جنس عمله حيث إنه يخسر الدنيا فلا ينال فيها حظًا من غنيمة أو ربح ويخسر الآخرة أيضاً فهو معذب فيها بنار الله الموقدة فهو عابد لربه على شك حرصاً منه على الربح وتحصيل المنفعة فإن شاهد في دينه الخير والرزق والكسب اتبعه وإلا انقلب على وجهه وعدل عن دينه فكان الجزاء أن خسر الاثنين معاً وضيعهما وفقدهما وهذا هو الهلاك البين الواضح لمن تدبر فيه وفكر، فلا خسران مثله، خسر دينه ودنياه وآخرته وخسر الأمان والاطمئنان والاستقرار... وخسر

---

(١) قوله تعالى: "**ظلام**" بصيغة المبالغة هنا لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم كما في قوله تعالى: "**محلقين رءوسكم**" إذًا التشديد فيه لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل أو الصيغة هنا للنسبة أي لا ينسب إليه ظلم فالمعنى ليس بذي ظلم "ينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن "للشيخ زكريا الأنصاري (٧٤-٧٥) بإيجاز ط١ -بيروت – عالم الكتب بتحقيق/ الصابوني سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٢) سورة الحج آية: (١١).

كل ما يجده المؤمن بجوار ربه وفي قربه منه بسبب جزعه وأنه لا يعبد ربه ويشكره إلا في حال السراء فقط.. وبهذا كانت الخاتمة مقررة لما مضى من الخسران مؤيدة لها وموضحة عظمته ومداه، وكان الخسران مبيناً واضحاً لا يخفى على أحد وهو لعظمة ومداه، وكان الخسران مبيناً واضحاً لا يخفى على أحد وهو لعظمه ظاهر وبين تدركه الأفهام ثم إنه سبب لما كان عليه هذا العابد لربه – على حرف – من الضلال والغي والتعسف حيث إنه مال عن الحق وضل عن الصواب فخسرانه دال مظهر لعلمه فلولا هذا العمل لما أحيط بالخسران من كل صوب فكانت بهذا خاتم الآية مظهرة لأولها وكاشفة عنها(١).

الموضع الثاني عشر: يقول الله تعالى في الآية (١٢) من سورة الحج: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: نقول إن دعاء من لا يضر ولا ينفع من دون الله ما هو إلا ذهاب وبعد عن طريق الاستقامة والهدى وضلال عن الحق وذهاب عن دين الله بعيداً فالأول لو ترك عبادته لن يضره، والآخر لو عبده لن ينفعه، فعبادته لهما عبث لا يتأتى الرجوع منها فقد أضلته وضل عن المتجه الذي يجدي فيه الدعاء، ويظهر التناسق البديع بي بالقول بالضلال ووصفه بكونه بعيداً لأنه يبعد عن طريق الحق والهداية والإسلام وإلا لما سمي ضلالاً، أي أن: هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر يعبد الأصنام وهي لا تضره إن ترك عبادتها ولا تنفعه إن عبدها فذلك المعبود جما لا يقدر على ضر ولا نفع فناسب ذلك المضمون أن تختم الآية بقوله: "**ذلك هو الضلال البعيد**" أي: عن الحق والرشد(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٩٤/١٧) بتصرف واسع.

(٢) سورة الحج آية: (١٢).

(٣) ينظر: زبدة التفسير من فتح القدير (٤٣٤) بتصرف.

الموضع الثالث عشر: يقول الله تعالى: ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين الله تعالى في هذه الآية أنه إذا كان هذا الذي يعبده أقرب ضراً من النفع لبئس المولى هو الذي لا يرجى منه نفعاً ولا يخشى منه ضرراً وبئس العشير والصاحب غير مأمون الضرّ فهو غير صالح لولاية أو لعشرة ثم ذيلت الآية بخاتمة أظهرت بؤس حاله وسوء ذلك الذي اتخذه ناصراً ومعيناً له ونلحظ تقديم الآية للمولى على العشير وذلك لأنه بِئْسَ مولاً ومعيناً فمن باب أولى يَبْئَسُ وسوء صاحباً وعشيراً ولهذا أخر جملة العشير وعطفها على الجملة الأولى "**بئس المولى**" الواقعة جواباً لقسم مقدر والتي لا محل لها من الإعراب[2].

الموضع الرابع عشر: يقول الله تعالى في سورة الحج آية(١٤): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: أنه (ﷻ) هو الذي يعطي ما شاء من كرامة لأهل طاعته وما شاء من الهوان لأهل معصيته فهو المحيط بكل شيء منزلة وعلماً فهي كالتعليل لأول الآية والإبانة لها فهو يفعل ما يريد من الأفعال المتقنة المبنية على الحكم الرائعة التي من جملتها إثابة من آمن وصدق وعقاب من أشرك وكذب[4].

---

(١) سورة الحج آية: (١٣).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/١٣) وأيضاً: تفسير أبي السعود (٩٨/٦) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (١٤).

(٤) تفسير أبي السعود(٩٩/٦).

الموضع الخامس عشر: يقول الله تعالى في سورة الحج آية (١٥): ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾[١].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: اختلف أهل التفسير في مرجع الضمير هنا في قوله: "**أن لن ينصره الله**" فقال بعضهم: إنها في النبي (ﷺ) وربه أي: من كان منهم يحسب أن الله لن ينصر محمداً في الدنيا والآخر فليمدد بحبل إلى سماء بيته أو أي سماء ثم ليقطع ذلك السبب بعد الاختناق فلينظر حينها هل يذهب فعله هذا ما يغيظ وما يجده في صدره من الغيظ والغضب من بعض ما قضى الله سواءً أكان هذا الذي يغيظه نصرة للرسول (ﷺ) ومن ثم محاولة منعها أو استبطاء الرزق والسعة في العيش من الله تعالى على الرسول وأتباعه من قِبَلِ مَنْ يشكون في دين الرسول ويخافون عدم ثباته فيجزعون أو ممن يحنقون على الإسلام فيستبطئون الرزق والنصر من الله، فإنه مهما فعل فلن يغير من الأمر والقضاء شيئًا[٢]، وسواء أكان كيده المراد: عمله الذي يبذله لصنع ما يريد من الاستعجال بالخير والنصرة أو منع النصرة على الرأي الثاني- (أي إن كانت في شأن المشركين المغتاظين الذين يمنعون النصرة)- فإن هذا لن يذهب ما يجده في نفسه من الغيظ والحنق، وعليه كانت الخاتمة "**هل يذهبن كيده ما يغيظ**" مناسبة ومطابقة ومتممة لمضمون الآية الذي أراده الله تعالى كما أنها تشعر بالاستهزاء والسخرية من هؤلاء المغتاظين ومظهرة لقمة ضعفهم وعجزهم، بل قد أشار ودلل الطبري

---

(١) سورة الحج آية: (١٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٧/٩٦-٩٧) وتفسير أبي السعود (٦/٩٩) بتصرف. - وفتح القدير (٣/٤٤١).

(رحمه الله) في تفسيره على أنها في شأن الشاكِّين في دين الرسول (ﷺ) والعابدين لله على حرف يترقبون ما يحدث لهم سابقًا توبيخًا لهم على ارتدادهم وشكهم(١).

– فنلحظ الملاءمة والتناسب بين الكيد والغيظ حيث إن هذه الخاتمة تبين ما يحدث في النفس من غيظ لها وضيق يدفعها إلى شتى صنوف الكيد والتفنن لإذهاب ما تجده معه تلك النفس عقلها وحكمتها فيتحكم ويتغلب عليها الشيطان ويذهب جلّ همها إلى تلك الجهة التي يذهب بها المغيظ.

الموضع السادس عشر: يقول الله تعالى في سورة الحج آية(١٦): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يقول الله تعالى وكما بينت لكم حججي على من جحد وأنكر البعث، ومثل ذلك تلك الآيات، أنزلنا هذا القرآن على محمد (ﷺ) آيات واضحات يهدين من أراد الله هدايته ابتداءً أو الزيادة في هدايته لمن كان مهدياً من قبل فهو الذي يوفق للصواب والطريق الحق(٣)، وهو أيضًا يضل من يريد ممن سعى في الضلال ولم يرد الله هدايته فلو جاءته كل آية ما آمن ولم ينفعه القرآن شيئًا بل يكون حجة عليه– وهذه هي سنته تعالى في خلقه، وإن كانت الآية قد أفردت حالة الهدى بالذكر وذلك لمناسبة ما في الآيات المنزلة من بيان وتوضيح يستلزم الهدى في القلب المسلم النقي وعليه يظهر لنا عظمة النظم في

---

(١) تفسير الطبري (٩٧/١٧) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (١٦).

(٣) تفسير الطبري (٩٧/١٧) – وتفسير أبي السعود (٩٩/٦) – وفتح القدير (٤٤١/٣) بتصرف.

العطف[1] بين الجملة الأخيرة التي ختمت بها الآية وصدر الآية حيث إن إنزال الآيات البينات المستلزم القلب السليم المهدي ليتوصل إلى الحق والوضوح والإبانة التي فيها[2].

الموضع السابع عشر: يقول الله تعالى في الآية (١٧) من سورة الحج:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾[3].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: بداية يجب أن نقف على المراد بتلك الألفاظ الواردة في الآية بإيجاز حتى تتم الفائدة. فنقول – وبالله التوفيق–: قوله تعالى:"**إن الذين آمنوا**" أي بالأنبياء من قبل بعثة محمد (ﷺ) أو آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن المرتبة وإن عُبِّر عنها بالإيمان لا تجديهم نفعًا أصلاً ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعًا[4].

---

(١) جعل بعضهم الواو غير عاطفة والتقدير لأن الله يهدي من يريد أنزله كذلك أو على أنها خبر لمبتدأ محذوف. ينظر: تفسير أبي السعود(٦/١٠٠).

(٢) بعضهم جعل للتأويل: ولأن الله يهدي من يريد أنزلناها... ذكره العكبري في إعراب القرآن (٢/٩٣٦) ولكنه ضعيف – تحقيق على محمد البجاوي طبع بدار إحياء الكتب العربية – حلبي.

(٣) سورة الحج آية: (١٧).

(٤) اختار هذا الرأي من المفسرين: ابن عطية في المحرر الوجيز(١/٢٩٨) ط الدوحة قطر ١٤٠٩هـ–١٩٨٨م تحقيق عبد الله الأنصاري – السيد عبد العال. وأيضًا: الواحدي في تفسيره البسيط(١/٢٠٠) بمخطوطة دار الكتب تحت رقم (٥٧) تفسير دار الكتب.

وقوله تعالى: "**والذين هادوا**" أي تهودوا من هاد إذا دخل في اليهودية "**والنصارى**" جمع نصراني سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح (عليه السلام) أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها "**نصران أو ناصرة**" فسموا باسمها أو باسم من أسسها(١).

المراد بقوله: "والصابئين: هم طائفة من اليهود وقيل: من النصارى وهو الأصح ولكنهم عبدوا الملائكة وقيل: عبدوا الكواكب.. والصابئ هو التارك لدينه(٢).

المراد بقوله المجوس: فقيل: هم قوم يعبدون النار وقيل الشمس وقيل اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوح وقيل أخذوا من دين اليهود شيئًا ومن دين النصارى شيئًا وهم القائلون بأن للعالم أصلين:النور والظلمة وقيل: هم قوم يستعملون النجاسات والأصل نجوس فأبدلت ميماً(٣).

والذي يعيننا في هذا المقام: أنه ختم الآية بقوله: "**إن الله على كل شيء شهيد**" وهذا مناسب تماماً لمضمون الآية لأنه (سبحانه وتعالى) لمَّا ذكر قوله: "**إن الله يفصل بينهم يوم القيامة**" كان ذلك مدعاة للتساؤل عن هذا الفصل، هل هو عن علم أو لا؟.

فكأن قائلاً قال: أهذا الفصل عن علم آو لا فقيل: "**إن الله على كل شيء شهيد**" أي عالم لا يغيب عنه شيء، ولا يقع في قضائه ظلم ولا حيف فتلك الجملة تعليل لما قبلها وهو قوله: "**إن الله يفصل بينهم**" أي بين تلك الفرق جميعها بإظهار المحق من المبطل يوم القيامة(٤).

---

(١) تفسير الرازي(١١٢/٣) بتصرف ط دار إحياء التراث العربي. بيروت.د.ت.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين (٦٠/١) بتصرف. ط دار إحياء الكتب العربية – حلبي.

(٣) المصدر السابق (١٥٨/٣) بتصرف.

(٤) ينظر: حاشية الجمل على الجلالين (١٥٨/٣) بتصرف.

الموضع الثامن عشر: قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: جاءت خاتمة هذه الآية على أنسب وجه وأتمه حيث بينت الخاتمة أن الله تعالى يكرم من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويسعد أو يشقي من يشاء سعادته أو شقاوته فالأمور كلها بيد الله (ﷻ) والمشيئة من الله تقتضي وجود الشيء ولهذا قيل: "**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**"، وتسمى عند الأصوليين الإرادة الشرعية منه تعالى لا تقتضي وجود المراد حتماً قال تعالى: ﴿أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾[3] ولكن الحق أن العسر والتظالم بين الناس يمكن حصوله فهذه الإرادة تطلق على الإرادة الشرعية وهي متعلقة بما يحبه وما لا يحبه تعالى، ثم إنها تقع أي: واقعة حتماً وفي هذه الآية شاء الله كوناً أن يكون هناك سعيد وشقي وأن يكون هناك مهان ومعز لحكمة يريدها تبارك وتعالى وإن كان شرعاً لا يريد أن يهين أحداً من خلقه ولكنه أرادها وشاءها قادراً وجاء التعبير في ختام الآية (بما) الدالة على العموم وذلك لإطلاق المشيئة من الله تعالى في كل شيء (يفعل ما يشاء) في كل أمر من الأمور فكل

(١) سورة الحج آية: (١٨).

(٢) سورة البقرة آية: (١٨٥).

(٣) سورة غافر آية: (٣١).

الكون مسخر له تعالى ومنه هو المتصرف فيه يفعل فيه ما يشاء فلا يقتصر هذا على خلق له دون خلق بل المشيئة محيطة بالجميع(١).

الموضع التاسع عشر: قوله تعالى في الآية (١٩) من سورة الحج: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴾(٢)

مناسبة خاتمة لمضمونها: يبرز جلياً التناسب البليغ بين خاتمة هذه الآية ومضمونها حيث إن لفظ "**الحميم**" يتلاءم تماماً مع فحوى الآية ومضمونها لأن الآية عرضت للفريقين فبأت بالكفار – على الرأي الراجح في التفسير(٣).

فذكرت عذابهم وما أعد الله لهم من الويل والثبور أولها تقطع الثياب وتفصل من نار ثم صب الماء المغلي الحار فوق رءوسهم ولا يخفى التناسب والتوافق بين ذكر النار وذكر الماء المغلي الحار حتى تجتمع عليهم الحرارة والحرق من كل حدب وصوب من فوق رءوسهم وسابغاً على أجسادهم ثم إن النار معلومة في الدنيا أنها تجتمع فيها الحرارة واللهيب والحرق وكذلك الماء المغلي تجتمع فيه نفس الصفات وهنا يقف العقل حائراً أمام هذا التناسب البليغ الذي تجلت فيه العظمة في كل جانب وتجلت فيه الدقة اللفظية في استعمال الكلمات القرآنية فقد اختار لفظ الحميم تحديداً دون غيره ليتلاءم ويتناسب هذا اللفظ مع ذكر النار في وسط الآية ومضمونها.

---

(١) ينظر: في هذه المسألة: شرح العقيدة الطحاوية ص(١١٦-١١٧) بتصرف تحقيق/ جماعة من العلماء- وشرح أحاديثها/ محمد ناصر الدين الألباني – المكتب الإسلامي للطباعة و النشر – بيروت ط الرابعة ١٣٩١هـ.

(٢) سورة الحج آية: (١٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري(١٧/٩٩-١٠٠) بتصرف.

الموضع العشرون من سورة الحج: يقول الله تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: ذكر الله تعالى هنا عقب الآية السابقة التي ذكر فيها الحميم ما يحدثه هذا الحميم المصبوب من إذابة وصهر للأحشاء وما في البطون بل والجلود أيضاً فنجده أخر قوله: "**والجلود**" عن البطون حتى لا يتصور الذهن أن هذا الصب يكون تأثيره على داخل الجسم وباطنه فقط بل هو صب على الداخل والخارج معا يحترق داخله مع خارجه بل إن احتراق الخارج أشد وأولى ثم إن هذا الصب يكون على الرأس فينفذ إلى الجمجمة حتى يخلص إلى الجوف والقدم ويصهره ومع كل هذا حرق الجلد أولى[2].

الموضع الحادي والعشرون من سورة الحج: يقــول الله تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾[3] المناسبة بين خاتمة الآية ومضمونها: ما زال السياق القرآني مستمراً في عرض حالة الفريق الكافر فقد جعل لهؤلاء آلات للقمع والضرب وكانت من أشد أنواع الآلات المعروفة وأقواها حدة وأشدها حرقًا وألماً إذا ما كانت فيالنار ألا وهي الحديد فاجتمع عليهم العذاب من كل مكان ولا ملجأ لهم، واجتمعت عليهم ألوان الألم فثياب من نار وحرق بها وماء مغلي حميم يصب عليهم ثم آلات من حديد يقمعون بها وسط هذا العذاب وهذه الآلات حارة ملتهبة ويزيد حرها وألمها وجودها في النار حتى يكون عذابها عذابين: عذاب الحرق وعذاب الضرب وآلامه فيالهول العذاب ويا لهول المصاب به، والمقام يوحي بأن المقامع من معدن مشهور بالصلابة ومن ثم جاءت الخاتمة (... من حديد) على أنسب وجه.

---

(١) سورة الحج آية: (١٩).

(٢) تفسير الطبري آية: (١٠٠/١٧) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (٢١).

الموضع الثاني والعشرون من سورة الحج: قوله تعالى:﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾(١).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: نلحظ من سياق الآيات السابقة أن هؤلاء الكافرين يضيق بهم الحال فيحاولون الخروج من النار ولكن أنّى له مالخروج وسط هذا العذاب المحيط بهم من كل جانب فكلما شارفوا على الخروج وأرادوا أعيدوا إليها وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق إمعاناً في توبيخهم وتقريعهم وعذابهم فإن هذا العذاب إلى الحريق زيادة في التنكيل والاحتقار وقد وصف العذاب بأنه محرق وهذا يتناسب مع تكذيب الكفار وعدم إيمانهم بالله تعالى وبلقائه فبين أنه قد توعدهم بعذاب يحرق باطن جسدهم قبل ظاهرة فضلاً عن التأنيب والتوبيخ والألم النفسي.. ولهذا قال: "**أعيدوا فيها**" ولم يقل: "أعيدوا إليها ليفيد أنهم لم يخرجوا منها وإنما هم متمكنون وباقون فيها(٢)..،

فتلك الخاتمة التي نراها في هذه الآية "**وذوقوا عذاب الحريق**" نتيجة حتمية لصدر الآية التي ترد الكافرين إلى جهنم مرة أخرى ليذوقوا عذاباً محرقًا في كل شيء بكل صنوفه وألوانه.

الموضع الثالث والعشرون من سورة الحج: قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾(٣).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: جاءت الخاتمة هنا مناسبة تماماً لمضمون الآية وهي قوله: "**ولباسهم فيها حرير**" حيث إنها تستمر في عرض النعيم الذي

---

(١) سورة الحج آية: (٢٢).

(٢) حاشية الجمل على الجلالين(١٦٠/٣) بتصرف واسع.

(٣) سورة الحج آية: (٢٣).

أعده الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات فالنعيم ألوانه متعددة ففي الجنة ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهناك تحلية لهم بالذهب واللؤلؤ وهناك اللباس الجميل الرائع من الحرير ولعل اختيار الحرير دون غيره من اللباس بسبب تحريمه عليهم في الدنيا ولدلالة الحرير على النعومة والسعة في العيش والليونة ولكونه أغلى ما يعرفون من أنواع الأقمشة وأروعها ومع أن هذا الحرير لا يمكن الحصول عليه في الدنيا بسهولة فإننا نلحظ أن تلك الخاتمة تخبرنا بأن لباسهم فيها حرير أي جميع ما يلبسونه حرير وفي هذا رفق منه تعالى بأجسادهم وبشرتهم حتى لا يمسها إلى الناعم الطيب زيادة في التفكه والتنعم(١).

الموضع الرابع والعشرون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: وفي تفسير هذه الآية عدة أقوال: فقيل هدوا إلى شهادة أن لا إله إلا الله في الدنيا أو ألهموا هذا وهدوا إلى الكلام الطيب الحسن وهدوا إلى طريق الرب الحميد وطريقة الدين الإسلامي فهو محمود تعالى عند أوليائه من خلقه(٣)... فإذا كان الله تعالى قد هداهم إلى كلمة التوحيد فهو قد هداهم إلى طريق الدين الإسلامي المحمود الذي يستلزم تلك الكلمة ومن ثم يستلزم العمل بما توحيه من قول وعمل وواجبات مختلفة وعليه فإنه يستنبط من ذلك أن آراء المفسرين في تفسير هذه الآية مؤدية إلى بعضها فإن هداية وإرشاد الله تعالى أو إلهامه عباده لقول "**لا إله إلا الله**" أو قول "**الحمد لله**" أو كان المراد القرآن وهو

(١) تفسير الطبري (١٠١/١٧) بتصرف واسع.

(٢) سورة الحج آية: (٢٤).

(٣) المصدر السابق (١٠٢/١٧).

يحوي تلك الأقوال السابقة وما يدل عليها ومن ثم أرشدوا إلى صراط الرب المحمود وهو الدين القويم الذي يهدي إلى الجنة.

وعلى قول بعضهم تكون الآية قد ختمت بما يشمل أولها ويعمه فإن الإسلام يستلزم الشهادة أولا ثم يستلزم العمل بواجبها والاعتقاد بها في كل قول وفعل فهي شعار الإسلام الذي يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم طريق الرب المحمود فقد اختاره هؤلاء ديناً لهم وهداهم ربهم إليه وعليه فهم حامدون لربهم تعالى محبون له على كل حال فقد هداهم إلى طريق النجاة والسلامة وعليهم المبالغة في حمده وشكره ولعل هذا هو السبب في تأخير الجملة المعطوفة: "**وهدوا إلى صراط الحميد**" من الجملة المعطوف عليها الأولى فإن الهداية إلى القول الحق ينتج عنها ويتبعها الهداية إلى الطريق السليم وفيه إشارة إلى تقديم القول على الفعل فإنه في الأولى هداهم إلى القول الحق وفي الثانية هداهم إلى كل فعل وعمل صالح فكانت أشمل وأعم لأنهم الآن مهديين في جميع أقوالهم وأفعالهم بعد الهداية إلى التوحيد وكلمته وتكررت الهداية في الجملتين تفيماً للهداية وإشارة إلى استقلال كل منهما عن الأخرى(١).

الموضع الخامس والعشرون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾(٢).

مناسبة الآية لمضمونها: لما كان سبيل المشركين الصد عن سبيل الله وطريقه الذي شرعه للناس ونهجه الذي اختاره لعباده فقد حكم وتوعد من أراد اعوجاجاً

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٠٢/١٧) – وحاشية الشهاب (٢٩١/٦) بتصرف – وتفسير أبي السعود (١٠٢/٦).

(٢) سورة الحج آية: (٢٥).

في هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم أيما كانت تلك الإرادة أو ذاك الاعوجاج وإذا كان هذا جزاء مَنْ يريد فكيف بمن يفعل ويبت في العمل؟ وهذا مبالغة في التوكيد وزيادة في التحذير، وهنا تناسب بليغ بين لفظ الظلم والعذاب الأليم فكما أنه قد أراد الاعتداء والبغي بدون حق وإنما ظلماً فكذلك له الألم والعذاب ليكون جزاؤه من جنس عمله مهما كان ذاك الظلم الواقع منه في البيت الحرام فيكون له به أيضاً الألم والوجع الشديد لأنه قد ارتضى في الدنيا الظلم لنفسه سواء أكان واقعاً على نفسه بالشرك أو على غيره بالصد والمنع والطغيان وغير ذلك(١).

الموضع السادس والعشرون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: لما ذكر تعالى حال الكفار وصدهم عن المسجد الحرام وتوعد من أراد فيه بإلحاد ذكر حال أبيهم إبراهيم (عليه السلام) وتوبيخهم على سلوكهم حيث أمر الله تعالى هنا إبراهيم بعدم الإشراك ومن ثم تطهير البيت للمصلين القائمين والراكعين والساجدين اللذين يمثلان قمة الخشوع والتذلل لله تعالى وتعارض هذا مع النهي عن الشرك وللتعريض بالكافرين وفعلهم حيث إنهم يشركون بربهم على الرغم من تبوئته البيت لهم ولكنهم يسجدون ويركعون ويعبدون غيره (سبحانه وتعالى).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٠٥/١٧) بتصرف. وحجة شيخ المفسرين في هذا أن الظلم مطلق في الآية فلا مجال لتحديد نوع دون آخر.

(٢) سورة الحج آية: (٢٦).

الموضع السابع والعشرون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: بعد أن أمر الله نبيه إبراهيم (عليه السلام) بالنداء للحج في الناس وأخبر تعالى أنهم سيجيبون النداء ويلبون أمر ربهم بين هيئة وصفة حضورهم والطريقة التي يسلكونها للوصول فمنهم من يأتي راجلاً أي – ماشياً على رجليه– ومنهم من يأتي على كل ضامر – أي بعير مهزول.. وتأتي هذه الضوامر من كل طريق ومكان ومسلك بعيد[2] ... وجاء التعبير بعميق دون بعيد على الرغم من أن عميق في أصلها دالة على العمق والبعد سفلاً فلا تطلق إلا على الشيء البعيد القعر[3] لنكتة بلاغية وهي التناسب والتلاؤم بين هذا المعنى للعمق وبين حقيقة ذلك الطريق حيث إنه يقع بين جبلين وفاصل بينهما[4] ولهذا أيضاً عبر بلفظ الفج دون الطريق لأنه يعني الطريق المنفرج ذي الفجوات البعيد[5]، ثم إنه يلائم الغرض المفهوم والمعتبر من مفهوم الفج حيث إن الفج يعني السعة التي يكتنفها جبلان[6] وإن كان هذا مستعملاً في الطريق الواسعة إلا

---

(١) سورة الحج آية (٢٧).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود(١٠٥/٦) – فتح القدير(٤٤٨/٣).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (٣٤٨) تحقيق/ محمد سيد كيلاني – دار المعرفة – بيروت – لبنان.

(٤) حاشية الشهاب على البيضاوي (٢٩٣/٦).

(٥) أساس البلاغة للزمخشري (٣٣٤) بتصرف تحقيق/ عبد الرحيم محمود– ط دار المعرفة – بيروت ١٤٠٢هـ– مطابع يوسف.

(٦) المفردات ص(٣٧٣).

أن معنى السعة لا يناسب هنا لكون الفج يعني الطريق الواقع بين جبلين وهذا الطريق لا يكون بسعة الطريق العادي الغير محاط بجبال(١).

وعلى ذلك جاءت الخاتمة متناسبة تماماً مع مضمون الآية حيث أفادت تحقيق استجابة الناس لنداء الخليل إبراهيم (عليه السلام) فيهم بالحج حيث جاءوا مشاة وعلى كل ضامر فأتت الإبل بالركبان للحج من كل فج عميق وطريق بعيد.

الموضع الثامن والعشرون: قوله تعالى في ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: بين الله تعالى هنا بعض الغايات من الحج وأنهم يذبحون لله تعالى ذاكرين اسم الله على بهيمة الأنعام الشاملة للإبل والبقر والغنم ثم بين العلة والفائدة من هذا الذبح وهي التقرب إلى الله تعالى ثم إطعام البائس والمحتاج من الفقراء والمساكين فالبائس قد أصابه ضرر الجوع والفاقة والحاجة، والثاني لا شيء له أصلاً وقيل: البائس الذي أصابه بؤس أي شدة أو هو الذي يمد كفيه إلى الناس يسأل، أما الفقير فهو المحتاج الذي أضعفه الإعسار(٢)... وكأن الآية قد ذكرتهما مواساة لهما وتلطيف وتقريب بينهما وبين الغني والمكتفي حيث ذكر الإطعام لكلاهما(٣).

الموضع التاسع والعشرون من سورة الحج: قوله تعالى:﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾(٤).

---

(١) حاشية الشهاب (٢٩٣/٦).

(٢) روح المعاني للآلوسي (٢١٦/١٧) تصحيح محمد حسين العرب– دار الفكر – بيروت ١٩٩٧م.

(٣) حاشية الشهاب (٢٩٣/٦).

(٤) سورة الحج آية: (٢٩).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: أي ليقضوا ما عليهم من مناسك الحج من حلق شعورهم ورمي الجمرات وطواف بالبيت ووفاء بالنذر وسمي بالعتيق: أي القديم والمتقدم في الزمان والمكان أو لأن الله أعتقه من الجبابرة ولم يجعل لأحد سلطة عليه أو يمتلكه أحد منهم.... وقد جاء هذا الوصف للتعظيم والتفخيم الدال على الإكثار من الطواف به دون تلك الأصنام التي كان يطوف المشركون بها في جاهليتهم وشركهم وربما كان في هذا الوصف دلالة على أن تلك المناسك التي في الحج من طواف وغيره موجودة منذ القدم بوجود هذا البيت وأمر الناس بها كما تؤمرون أنتم بها ولا يخفى ما في هذا من التلطيف للأمر والتخفيف على الناس ثم إن هذه المناسك لم ولن تبلى أو تزول كالبيت تماماً.. إضافة إلى الإشارة إلى عظمة تلك المناسك لعظم شأن البيت الذي تقام فيه وحوله في تلك الأيام فقد مُنع من الجبابرة الأشداء ولم يمنعهم إلا الله (ﷻ) بينما فتحت لهم بلاد العالم وسخرت لهم وقيل: سمي بهذا تعريضاً بالمشركين الذين كانوا يجعلون باب الكعبة بدون درج ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا(١).

الموضع الثلاثون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يدعو الله تعالى إلى تعظيم الشعائر والفرائض التي ذكرها سابقًا في مناسك الحج وتعظيمها باجتناب ما أمر الله باجتنابه في وقت إحرامه وترك ملابسته لها فإن ذلك خير له عند ربه وعليه فإن صاحب الضمير المؤمن والحس اليقظ سيتنبه ويتقي ما أمره تعالى باجتنابه ويعمل بما أحله له

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥٠/١٧) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٣٠).

ويسره له ولن يبالي بما حرمه المشركون أو أباحوه لأنفسهم فإن عمدته ومرجعه إلى الله تعالى مولاه ولهذا أتى الأمر فيما بعد الإحلال الذي يوجب التعاطي والعمل بالاجتناب عما هو أقصى الحرمات باتقاء واجتناب عبادة الأوثان أو طاعة الشيطان والكفرة في عبادتها فهي رجس ونجس... ولذلك أعقب هذا الأمر بترك واجتناب قول الزور وهو الكذب والافتراء على الله والادعاء بأنهم يعبدون الآلهة لتقربهم إلى الله أو قولهم: إن الملائكة بنات الله أو غير هذا فإنه كذب وزور وشرك بالله أو غير هذا من التعميم، وفي إطلاق لفظ الزور على الشرك تعظيم له يجعله هو والشرك سواء، ونلحظ أن هناك في ختم الآية بالزور تناسباً فيما بينه وبين ذكر الإحلال في قوله: "**وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم**" حيث إن الكفرة ادعوا زوراً أو بطلاناً تحريم بعض الأنعام كالسائبة ... إضافة إلى أن فيه عرضاً لفئتين فئة تعظم الحرمات وتعمل بها وفئة تقول الزور وتشرك بالله – حيث إن لفظ الزور عام يشمل الشرك وغيره – ويميل عن الصراط والحق، مائلة عما خلقها الله له(١).

الموضع الحادي والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾(٢)

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يدعو الله (ﷻ) الناس إلى الاستقامة على الطريق السوي والإخلاص له تعالى وإفراده بالطاعة دون سواه فإن من يشرك بالله شيئًا فمثله في بعده عن الهدى وهلاكه وذهابه عن طريق ربه كمن خر من

(١) ينظر في ذلك: فتح للقدير (٤٥١/٣) – وتفسير أبي السعود(١٠٥/٦) – وتفسير الطبري(١١٢/١٧) – وحاشية الشهاب(٢٩٥/٦) – والمفردات للراغب (٢١٧) بتصرف.
(٢) سورة الحج آية: (٣١).

السماء فتخطفه الطير في الهواء فيذهب في حواصلها بعد أن مزقته أو تقذف به الريح في مكان بعيد وذلك جزاءً له لكونه قد هوى من أفق الإيمان إلى حضيض الكفر والضلال فشابه بهلاكه بشركه هلاك من اختطفته الطير في الهواء أو كان في بعده من ربه ومن إصابة الحق كبعد ذلك الواقع من السماء إلى الأرض(١)... ولربما جمع النظم الكريم بين التشبيهين إشارة إلى أن من المشركين من لا خلاص له أصلاً من الكفر فذاك كمن توزع الطير لحمه فقد بعدت نجاته ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بعد فذاك كمن ألقته الريح في المهاوي ولكن له أمل في النجاة، فتكون (أو) هنا للتنويع ولا يوجد تعارض بين قول من قال: إنه للتنويع ومن قال: إنها للتمييز فقد شبهه الله في هلاكه بشركه بهلاك من تتخطفه الطير وشبهه في بعده عن الحق بمن يسقط من السماء وجامع هذا كله أنه حينما أشرك وضل كان بعيداً من الله كبعد الساقط من السماء وهذا البعد عن الحق أدى إلى هلاكه فكان كمن يخطفه الطير(٢) وختم الآية بلفظ سحيق على وزن فعيل دلالة على الشدة في البعد والهلاك ومبالغة فيه للتهويل والتخويف للمشرك.

الموضع الثاني والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾(٣).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: قوله تعالى هنا: "**ذلك**" أي: ذلك الذي ذكرناه لكم من تعظيم حرماته وشعائره والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة ومنها المناسك كلها، ومنها: الهدايا جمع هدي والقربان للبيت، وتعظيم الشعائر: أي إجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد..، وتعظيم الهدايا

(١) تفسير الطبري (١١٢/١٧) –فتح القدير(٤٥٢/٣) – حاشية الشهاب(٢٩٥/٦) بتصرف.
(٢) حاشية الشهاب (٢٩٥/٦) بتصرف.
(٣) سورة الحج آية: (٣٢).

باستحسانها واستسمانها وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله، وقد ختم الآية بقوله: "**فإنها من تقوى القلوب**" لأن القلب محل منشأ التقوى ومركزها فإذا ثبت فيه وتمكن ظهر في سائر الأعضاء فهو موضع صلاح الجسد وفساده فالقلوب المؤمنة هي التي من شأنها الشعور بما هو أهل للتعظيم(١)...

الموضع الثالث والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: أنه (ﷻ) بين أن تلك الشعائر والأعمال والأماكن والأوقات التي جعلها الله من مناسك الحج لها فوائد ومنافع عائدة على عباده (ﷻ) العاملين بها من تجارة في الأماكن التي شرعها لهم واستفادة بالهدايا ... إلخ حيث ينتفع بها أربابها بالركوب والحلب ونحو ذلك مما لا يضرها "**إلى أجل مسمى**" مقدر وهو ذبحها ونحرها ثم محلها: أي حيث يحل نحرها "**إلى البيت العتيق**" أي الحرم كله "**منى**" وغيرها فتذبح هناك (٣)...

هذا وقد ختمت الآية بقوله "**ثم محلها إلى البيت العتيق**" ليتناسب مع مضمون الآية ويؤكد على أن هذه الشعائر والهدايا مع إباحة الانتفاع بها إلا أن لها حرمة وتأتي حرمتها من حرمة البيت العتيق الذي تذبح عنده- أي في الحرم كله- تلك الهدايا، وهذا يدل على تعظيم هذه الشعائر وتعظيم حرمتها المرتبطة بحرمة البيت العتيق أي القديم أو الذي لم يخضع لجبار من الجبابرة...

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن(٤٨٧) وأيضاً: تفسير أبي السعود (١٠٦/٦) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٣٣).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن(٤٨٧) وأيضاً: زبدة التفسير من فتح القدير(٤٣٨) بتصرف.

الموضع الرابع والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: الله (ﷻ) قد جعل لكل أمة من السلف منسكاً أي ذبحاً يهرقون دمه ويذكرون اسم ربهم عليه فهو إله واحد لا ثاني له قد أقيمت له تلك الشعائر وذبح له فاجتنبوا ما نهاكم به وائتمروا بما أمركم به وله أسلموا وانقادوا واستسلموا له لا غيره وتذللوا له بالعبودية والإقرار ثم يأمر نبيه (ﷺ) بتبشير من يخضع له تعالى ويخشع ويخلص ويتواضع ويعمل بما أُمر به فكأن النفس تستثقل الأمر الذي أمرت به أو تجد فيه مشقة فتأتيهم البشرى من الله والوعد بالخير فيشد هذا عزمهم ويدفعهم إلى مضاعفة الجهد والعمل. ولما كان الإسلام يتطلب الانقياد لله وعدم التكبر أو التغطرس وكان باعثًا للطمأنينة والتواضع وهما أقرب وأنسب شيء للحاج المتجرد من المخيط والملبس الذليل لربه والغريب عن أهله كان ختم الآية بالمخبتين إضافة إلى ملاءمته مع تأليه الله تعالى في الآية وإظهار عظمته والتذلل بين يديه كما أن فيه توافقًا مع الأمر بالإسلام وفيه دلالة على سرعة استجابتهم وانقيادهم لما أمرهم الله به فور نزول الآية بشأنهم [2].

الموضع الخامس والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الحج آية: (٣٤).

(٢) تفسير الطبري(١١٦/١٧) – تفسير أبي السعود(١٠٦/٦-١٠٧) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (٣٥).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: من المعلوم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات المخبتين وهي: الخوف والوجل من الله تعالى والصبر على ما أصابهم من البأساء والضراء وأنواع الأذى ابتغاء وجه ربهم محتسبين ثوابه مرتقبين أجره، ومن صفاتهم أيضاً إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى وختم الآية بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله لأهميته وللتأكيد عليه خاصة أن الحاج في رحلته هذه يحتاج إلى المال وربما يبخل بالنفقة أو يقلل منها أو يكف عنها فذكره سبحانه هنا بأن هذا الذي ينفقه إنما هو رزق من الله تعالى منَّ وأنعم عليه به فيجب عليه أن يؤدي هذا الحق وأن يشكره سبحانه فهو القادر على أخذه كما يسره وقادر على زيادته لهم فليؤدوا حق الشكر وليحمده على نعمه ولهذا قدّم ذكر قوله: "**مما رزقناهم**" على "**ينفقون**" للتأكيد على أن المال هو مال الله (ﷻ) تفضّل به عليكم ورزقكم إياه وأنتم مستخلفون عليه، كما أن فيه دلالة على تجدد واستمرار بذلهم لما رزقهم الله من المال فيؤدون حقه وهم معتقدون أنه لله ولا حكم لهم عليه لشدة تواضعهم وطمعهم في الأجر والثواب من الله.

الموضع السادس والثلاثون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: بين (ﷻ) أنه قد سخر للناس البدن وهي الإبل على ضخامتها وعظمة خلقها لهم، وقد كان قادراً على جعلها متوحشة غير مسخرة لهم كغيرها من الحيوانات الأقل حجماً منها وعليه فهو يأمرهم سبحانه بذبحها وذكر اسم الله تعالى عليها ومن ثم الإطعام منها إذا ما سقطت على الأرض بعد أن كانت ممتنعة عنهم قبل الذبح.

---

(١) سورة الحج آية: (٣٦).

ثم إنها قد سخرت لهم فانقادت إلى مواضع نحرها فنحروها وانتفعوا بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها- والحلب منها... وغير ذلك[١]، فلعلهم بعد هذا يشكرون ربهم تعالى على تلك النعم المسخرة لهم فيؤدون ويعملون بما أمرهم به سابقًا من النحر والذكر والإطعام ولا يبخلون بشيء ولتحلوا منها ما أحل وتحرموا ما حرم وتتصرفوا فيها بحسب ما أمركم ربكم[٢].

وكان اختيار الشكر دون الحمد لأن فيه تصوراً للنعمة وإظهارها وضده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها إضافة إلى أن فيه ما يدل على الامتلاء من ذكر المنعم عليه، وهو أيضًا يشمل شكر القلب وهو تصور النعمة وشكر اللسان وفيه الثناء على المنعم وشكر سائر الجوارح ولهذا كانت توفية شكر الله تعالى صعبة قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٣].

ولم يثن بالشكر إلا على إبراهيم ونوح[٤]، ونلاحظ أن الشكر أخص من الحمد فلا يقال الشكر إلا في مقابلة نعمة فكل شكر حمد وليس كل حمد شكر[٥].

الموضع السابع والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[٦].

---

(١) تفسير الطبري(١٢١/١٧) فتح القدير(٤٥٥/٣) بتصرف.

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥٢/١٣) بتصرف.

(٣) سورة سبأ آية: (١٣).

(٤) المفردات للراغب (٣٦٥).

(٥) المصدر السابق (١٣١).

(٦) سورة الحج آية: (٣٧).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يخبر تعالى أن لحوم تلك البدن ودماءها لن تصل إليه من حيث إنها لحوم ودماء ولكن يصل تقوى قلوبكم وإخلاصكم له واتقاؤكم إياه وإرادة وجهه تعالى بعملكم فهذا هو الذي يصل إليه ثم يذكرهم بأنه تعالى قد سخر تلك البدن لهم ليكبروا الله ويعظموه على ما هداهم إليه من الدين والنسك وكيفية إقامته وأدائه ثم تأتي البشارة للمحسنين المطيعين لربهم المتعبدين لأوامره والناهجين نهج رسولهم الذين يحسنون العمل والعبادة ويخلصون النية لربهم فيما سبق من الأعمال والمناسك التي جاء ذكرها في الآيات وفي غير ذلك مما أمروا به ولا يخفى ما في هذا الوصف من تأليف لهم ودفع لنفوسهم للمثابرة والاجتهاد في العمل والاستمرار على ما هم عليه من الإخلاص، ويطلق الإحسان على الذي يحسن في الفعل ويجيد فيه أو على مَنْ يعلم علماً حسناً ثم إن الإحسان زائد على العدل أي أنه تحرى أمور التطوع والندب ولهذا عظم تعالى المحسنين[1]، هذا وقد ختم الآية ببشارة المحسنين وهذا مناسب تماماً لمضمون الآية لأن أمور الحج شاقة على المؤمنين بل هي من أشق الفرائض التي أمر الله تعالى بها لما فيها من الإنفاق والمشقة والجهد والسفر... وغيره كثير ولهذا جعلها تعالى فريضة مفروضة بشروط منها توافر المال والاستطاعة الكاملة ... وعليه فقد رغب تعالى في مضاعفة الجهد والتطوع والتعاون والزيادة في الخير والإحسان فيه وإجادة العمل وبشر من يعمل هذا بالخير والجنة.

الموضع الثامن والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

---

(١) ينظر: فتح للقدير(٣/٤٥٥) – وتفسير الطبري(١٢٢/١٧) والمفردات للراغب (١١٩) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٣٩).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: هذا إخبار ووعد وبشارة من الله للذين آمنوا أن الله يدافع عنهم، ويدفع عنهم كل مكروه ويدفع عنهم كل شر من شرور الكفار وشرور وسوسة الشيطان وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ويخفف عنهم... ثم يختم الآية بقوله: "**إن الله لا يحب كل خوان كفور**" فهي كالجملة التعليلية لما قبلها كأنها وقعت جواباً لسؤال مقدر فكأن سائلاً سأل وقال: لماذا يدافع الله عن الذين آمنوا؟ فَفُهِمَ من السياق أنه يحب المؤمنين لأدائهم الأمانات كما أمرهم وفي المقابل لا يحب كل خوان كفور، فالكفور هو المبالغ في كفران النعمة(١)... ولهذا تقدم في الآيات السابقة ذكر النعم التي أنعم الله بها على عباده وتسخيرها لهم وأنها مذللك لمنفعتهم لكنهم جحدوا تلك النعم ففي ذلك دلالة على مبالغة هذا الموصوف في كفره بالإضافة إلى وصفه بالخيانة (خوان) لكونه خائناً لأمانات الله وهي أوامره ونواهيه وجميع الأمانات الأخرى فخان ربه ونقض العهد(٢)، وقد ورد لفظ الكفور في القرآن كثيراً ولكن خوان لم يرد مع كفور إلا في هذه الآية ولعل هذا لإظهار عظم تماديه في الغي والضلال رغم التسخير من الله لهؤلاء والتيسير لهم.

الموضع التاسع والثلاثون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾(٣).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يأذن الله تعالى هنا للمؤمنين بالمقاتلة بسبب أنهم ظلموا ويخبر أنه تعالى ناصر لهم وقادر على ذلك فيعزهم ويرفعهم ويهلك عدوهم ويذلهم بأيديهم وفي هذا دفع للمؤمنين للمقاتلة وتقوية لهم وتشديداً لعزمهم

---

(١) المفردات للراغب (٤٣٣) بتصرف.

(٢) تفسير أبي السعود(١٠٨/٦) – والمفردات (١٦٣) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (٣٩).

ودفع لخوفهم من القتال فإن الله ناصر لهم حتماً فليطمئنوا إلى حماية الله وفيه أيضاً مقابلة للظلم الواقع عليهم من المشركين فإن النصر آتيهم ممن هو أعظم وأجلّ، من الله تعالى الذي لا شك ولا مراء في نصرته وتأييده، وفي هذه الآية تأييد وتأكيد لما مر في الآية السابقة من ذكر مدافعة الله للكفار عن المؤمنين وموافقة للآية التي بعدها التي جاء فيها ذكر للنصر وجاء ذكر القدرة بعد النصر لبيان أنه قادر عليها على الرغم من قوة المشركين وكثرة عددهم وعتادهم فلا يتبادر إلى الذهن بعد هذا استبعاد هذا النصر أو تلك الغلبة مع كثرة عدد المشركين أو عظمة قوتهم بل هو سبحانه قادر فاعل لما يشاء على قد ماتقتضي حكمته تعالى، وقد اقترن لفظ قدير باللام المؤكدة على وقوع النصر من الله تعالى(١).

الموضع الأربعون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: ذكر (ﷻ) هنا أن هؤلاء المؤمنين المقاتلين ما أخرجوا من دورهم وأموالهم إلا لأنهم شهدوا بالحق وآمنوا به فقهرهم هؤلاء وأخرجوهم ولولا ما شرعه تعالى للأنبياء من قتال الأعداء والدفاع لغلب بعضهم على بعض ولهدم القاهرون دور المقهورين من بيع وصلوات ومساجد...

(١) ينظر: تفسير الطبري(١٢٣/١٧) – تفسير أبي السعود(١٠٨/٦) وفتح القدير(٤٥٦/٣) بتصرف. وأيضاً: المفردات (٣٩٤) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٤٠).

واستولى أهل الشرك على أهل الحق وغلبوهم وضاعت مواضع العبادة وخربت وتيكد تعالى على نصرة المؤمنين(١).

من يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو تعالى معين لهم فيقسم تعالى على هذا وهو القادر على كل شيء القوى عليه عزيز في ملكه وسلطانه لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب فهو القاهر والغالب وحده وجاء ذكر القوة في الآية عقب ذكر النصر فإن المشركين يقاتلون وكذلك المؤمنين ولكن يختلف الاثنان في الهدف فأولئك يقاتلون دين القوى القاهر وهؤلاء يعلون كلمته وينصرون دينه فينصرهم بقوته وعزته فهو المالك لكل شيء المالك للدين وللكون ولهؤلاء المقاتلة من المؤمنين والكافرين يعز من أراد ويذل من أراد فيعز المؤمنين ويعيدهم إلى ديارهم بعد النصر والغلبة ويمكن لهم ما أخذ منهم وسُلب ... هذا وقد ناسب ختم الآية بقوله: "**إن الله لقوى عزيز**" ليتلاءم مع مضمون الآية ففيها وعد وبشارة بالنصر أي أنه كامل القوة عزيز لا يرام قد قهر الخلائق وأخذ بنواصيهم فأبشروا يا معشر المسلمين فإنكم وإن ضعف عددك وقوى عدد عدوكم وأسلحتهم فإن ركنكم القوي العزيز ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون فاعملوا بالأسباب المأمور بها ثم اطلبوا منه نصركم فلا بد أن ينصركم(٢)...

الموضع الحادي والأربعون: من سورة الحج: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾** ﴾(٣).

---

(١) تفسير الطبري (١٢٦/١٧) تفسير أبي السعود(١٠٩/٦) والصوامع هي صوامع الرهبان، والبيع كنائس النصارى، والصلوات: هي كنائس اليهود، والمساجد هي مساجد المسلمين".

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٨٩) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (٤١).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يخبر (ﷻ) في هذه الآية عن أوصاف المؤمنين الذين أذن الله لهم في القتال ويبين أنهم إذا ما نصرهم الله على المشركين وكّن لهم في الأرض ووطن لهم في البلاد أطاعوا ربهم فأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ويختم الآية بما يلائم هذا المعنى وهو أن مردّ الأمور كلها ونهايتها إليه تعالى ليجازي عباده إن خيراً فخير وإن شراً فشر فلا يظن أن أعمال هؤلاء الخلق هباء غير محاسبين عليه بل هناك ثواب وعقاب فليجتهد هؤلاء المؤمنون وليبالغوا في بذل العمل والجهد فإن الله مظهر لهم ... ومرد جميع الأمور له تعالى دون سواه سيعلي كلمته وينصر عباده، وتلك الخاتمة فيها تأكيد للنصر والتمكين للمؤمنين وتأكيد لحق وإعلائه ودفع للإخلاص في العمل والاجتهاد وكأن هؤلاء المؤمنين يتذكرون أن نهاية أمورهم كلها لله فيضاعفون الجهد وكان التعبير بالعاقبة لكون إطلاقها مختص بالثواب وفي أصلها تعني مؤخرة الشيء ونهايته وهذا يتناسب مع ما ذكر قبلها من أعمال المؤمنين الممكنين في الأرض(١).

كما لا يخفى ما في التعبير من دقة حيث جاء التعبير بأمور لكونها دالة على أن هؤلاء المذكورين قد فعلوا ما أمروا به والتزموا بها ولم يخالفوا أمر ربهم بل أطاعوه في كل قول وفعل فالأمر لفظ مطلق على كل ما يؤمر به وعليه فشئون هؤلاء عائدة إلى الله ليجزي بها.

الموضع الثاني والأربعون والثالث والأربعون والرابع والأربعون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ

(١) تفسير الطبري (١٢٧/١٧) و تفسير أبي السعود (١٠٩/٦) وأيضاً: المفردات للراغب (٣٤٠) بتصرف.

وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾[1].

مناسبة خاتمة الآيات لمضامينها: ترتبط هذه الآيات بمضمون واحد وتتفق في هدف واحد وهو تسلية النبي (ﷺ) وتثبيت فؤاده ببيان عاقبة المكذبين من الأمم السابقة أمثال (قوم نوح وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين وأيضاً كُذِبَ موسى (عليه السلام)) فكما كُذّبت يا محمد من كفار قريش فقد كُذّب الرسل من أممهم فأمهل الله هؤلاء المكذبين وأملى لهم ثم أحلّ بهم العقاب والهلاك بعد أن انقضت مدة الإمهال فانظر كيف كان إنكار الله عليهم فعلهم وتغييره لما كانوا عليه من النعمة والإبدال بالكثرة قلة، وبالحياة موتًا وهلاكًا، وبالعمارة خرابًا فكذلك سيكون الفعل بمكذبي قريش فسيملي لهم ويمهلون ثم يؤخذون بالعذاب والهلاك كغيرهم، وكان التعبير بنكير لكونها كائنة فيمن فعل به فعلا يردعه وينكره عليه كحال هؤلاء المكذبين الذين تحدث عنهم النص القرآني فقد أتوا فعلاً منكراً فكان جزاؤهم كعملهم سواءً[2].

الموضع الخامس والأربعون: من سورة الحج: قوله تعالى:﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾[3].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة قرىً مهلكة وقصوراً كانت معمرة مشيدة، فكم من قرية كانت مرة فأهلك أهلها لظلمهم وعبادتهم من لا ينبغي أن يعبد وعصيانهم خالقهم فخرت على عروشها وخلت

---

(١) سورة الحج الآيات: (٤٢-٤٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري(١٢٧/١٧) – وتفسير أبي السعود(١١٠/٦) وفتح القدير(٤٥٨/٣) – والمفردات للراغب(٥٠٥) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (٤٥).

من أهلها وخربت وتداعت وتساقطت على جدرانها وبنائها وكذلك آبار عطلت بهلاك أهلها وواردیها فاندفنت وتعطلت فلا وارد عليها ولا شارب وكذلك قصور مشيدة بالجص مرفوعة قد خلت من مكانها لإذاقتهم العذاب والهلاك بسوء أفعالهم فبادوا وبقيت قصورهم المشيدة خالية منهم، فقد تعطلت القرية والبئر والقصر بسبب إهلاك أهلهم لسوء عملهم وخراب قصورهم فقد تحولت حالهم وانقلبت عكس ما كانت عليه تماماً جزاءً لهم فلم تنفعهم تلك القصور المشيدة أو الآبار بل زالوا وهلكوا واندثرت آبارهم وبقيت قصورهم مشيدة بالجص محكمة قوية كما أعدوها وبنوها ولكن لم تنفعهم قوتها وعلوها وإحكامها بل زالوا وتركوها كما هي وأخذهم الله بكفرهم وسوء صنيعهم وأهلكهم(١). ونلحظ بدء الآية بالإهلاك وختمها بذكر القصور المشيدة المحكمة التي قد أعزت أهلها ولهتهم عن الصواب لضلالهم وكأن المرء يسمع بإهلاك هؤلاء القوم ثم يرى قصورهم وإحكام بنائها وعلى الرغم من ذلك فقد أصبحت خاوية من أهلها فعليه أن يتعظ ويعتبر، ونلحظ دقة في النظم في تفرد هذه الآية بتلك الخاتمة التي توحي بترفهم وعتوهم وعلى الرغم من ذلك تقدم لنا تلك الخاتمة العظة والعبرة فهؤلاء الظالمين كانت لهم قصور مشيدة ولم تنفعهم ولم تُغن عنهم من الله شيئًا.

الموضع السادس والأربعون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾** ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يقول تعالى في هذه الآية داعياً لهم إلى السفر وحاثًا لهم للسير والاتعاظ والاعتبار أفلم يسر هؤلاء الجاحدون في البلاد فينظروا

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢٧/١٧) وأيضا: المفردات للراغب (٢٧٠) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٤٦).

مصارع من قبلهم ممن كذبوا الرسل كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب... وغيرهم، وينظروا كيف أصبحت مساكنهم ودورهم فيتفكروا ويعتبروا ويتعظوا بهم ويعلموا أن هذه سنة الله فيمن كفر وكذب من خلقه ويتدبروا هذا ويرجعوا عن كفرهم فيكون لهم إذا ما اتعظوا وتدبروا قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فيعلقون حجج الله على خلقه ويسمعون الحق ولكن أنى لهم هذا فإن لهم أبصار يرون بها ما حولهم من أشياء وأشخاص ولكن تعمى قلوبهم التي تحويها صدورهم عن رؤية الحق والصواب،فالخلل كائن فيهم في إدراكهم وقلوبهم التي لا تعي الحق ولا تفهمه بسبب انغماسهم في الترف والملذات والأهواء(١)، وقد نص النظم الكريم على الصدور دلالة على أن تلك القلوب موجودة في الصدور فهي محلها وموضعها لا في غيرها، وأن القلوب المعنية لموصوفة بالعمى هي الموجودة في الصدور فلا يستغربون الوصف ويستبعدونه فإن هذه القلوب لموجودة في الصدور تصاب بالعمى كالأبصار بل إن عماها هو العمى الحقيقي المهلك لصاحبه المؤدي به إلى النار والعذاب الأليم وما عداه لا يعد عمى بالنسبة إليها كحال هؤلاء المذكورين فإن الضرر قد لحقهم لعمى قلوبهم على الرغم من إبصار عيونهم وفي الإشارة للصدور دعوة للتأمل في نفوسهم وفي مدى إصرارهم على الضلال والباطل... وفي ذكر القلوب والصدور في آخر الآية تناسباً مع ذكر القلوب في أولها والإشارة إلى أنها موضع التدبر والتعقل فإذا زال هذا منها كانت مصابة بالعمى الحقيقي وهو عمى القلوب وعدم رؤيتها للحق والخير...

(١) ينظر: تفسير الطبري(١٢٩/١٧) – تفسير أبي السعود(١١٠/٦) وحاشية الشهاب(٣٠٣/٦) بتصرف.

الموضع السابع والأربعون: من سورة الحج: قوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾(١).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين الله تعالى أن هؤلاء يستعجلون نبيهم بالعذاب الذي يعدهم استهزاءً وسخرية منهم فينذرهم بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة ويعدهم به ويخبر أنه تعالى لن يخلف وعده لهم وإن ذاك اليوم كألف سنة من سنواتهم التي يعدونها في الدنيا فإنهم يستبطئون ذاك اليوم ويرون أنه بعيد بحسابهم أيامهم في دنياهم ولكن الله تعالى لكمال حلمه يمهلهم إلى أجل ولا يأتيهم بالعذاب إلا إذا انضى ذاك الأجل الذي يعدهم به فما يرونه بطيئًا فهو قريب عنده تعالى فيومه (ﷻ) كـ ألف سنة من أيامهم التي يحصونها، وجاءت الخاتمة (تعدون) تتوافق وتتناسب مع ذكر الألف سنة المذكورة في الآية، وكأنهم يعدون أيضاً الأيام ليرون متى سيحل عليهم العذاب الموعود ويهزءون بما يعدهم به رسولهم ثم إنه من المعلوم أن الحساب يطلق على استعمال العدد(٢).

الموضع الثامن والأربعون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾(٣).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: أي وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين مخالفين لأمر ربهم أمهلتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب ومرجع الكل إلى حكمي، ونلحظ أن الآية ذكرت أن المرجع والمآل إلى الله تعالى ولم تذكر ما سيحدث بعد هذا تهويلاً لما سيجدون من العذاب ثم إن حالهم التي هم عليها من الشرك تغني

---

(١) سورة الحج آية: (٤٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٢٩/١٧-١٣٠) فتح القدير (٤٦٠/٣) والمفردات (١١٦) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (٤٨).

عن ذكر العقاب وتُعْلَمُ بما سيجدون ويكفي أن يتوعدون بالقول أن مآلهم إلى ربهم ومعادهم إليه فإنهم يتركون ويتنقلون من حال إلى حال فيما شاء الله لهم ثم ينتهون ويصيرون إليه بعد هذا(١)، وقد استعمل لفظ وإلىّ دلالة على الكبرياء والعظمة له تعالى وهو مناسب للحديث مع الكفرة المستهزئين بالعذاب ففي هذا التعبير زيادة تهويل وتصوير لشدة ما سيجدون فإن المصير إلى الرب العظيم ذو الجلال والكبرياء فليتوقعوا ما يصيبهم كما أن التعبير بالمصير فيه رد على المشركين الذين يجحدون البعث وبيان أن هناك مردود ومصير إلى الله وعذاب آخر أشد.

الموضع التاسع والأربعون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يخاطب الله نبيه (ﷺ) فيقول قل يا محمد لقومك أني ما أنا إلا رسول لكم من ربكم نذير مبين أنذركم عقابه أن ينزل بكم في الدنيا وعذابه في الآخرة، وأبين لكم هذا وأظهره واضحاً مفهوماً لتتوبوا عن شرككم وتحذروا(٣)، وأما الاستعجال بالعذاب فهذا إلى الله وحده لأحكم لي فيه ونلاحظ هنا دقة النظم في اختيار (مبين) حيث أن البين يدل على الخلالة بين الشيئين وإظهار طرفهما ووسطهما بلا لبس بل يزال الاستتار وينكشف ويظهر كل على حدة وينكشف ما استتر بهما وهذا يتلاءم مع إظهار الحق والباطل والكفر

(١) المفردات (٢٩٠) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٤٨).

(٣) تفسير الطبري (١٣٠/١٧) بتصرف.

والإيمان والخير والشر فكلاهما مظهر لهم مبين وهم يختارون الطريق القويم فلا حجة لهم بعد هذا[1].

الموضع الخمسون والحادي والخمسون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١ ﴾[2].

مناسبة خاتمة الآيات لمضمونها: ذكرت الله تعالى أثواب لاعظيم للمؤمنين بعد النذارة للمشركين إغاظة لهم وبثًا للحسرة في نفوسهم ثم إن ذكر النذارة ينبئ أن البشارة على غيره وخلافه فالذين آمنوا بالله ورسوله منكم ومن غيركم لهم ستر ذنوبهم التي سلفت منهم في الدنيا ولهم رزق كريم حسن في الجنة والكريم فيكل شيء هو ما يجمع فضائله وكمالاته فكل شيء شرف في بابه يوصف بالكرم، وسميت رزقًا لأنه بمعنى العطاء ووصفت بالكرم بمعنى أنها فائقة في صفات غير الآدميين[3]، فلهؤلاء المؤمنين المغفرة والرزق الفاضل الفائق في فضله وكماله والرزق أكثر ما يوصف بالحسن والكرم بل لا أظنه موصوفًا بغيرهما في القرآن الكريم[4]. والحسن هو كل مبهج مرغوب فيه[5]، والمغفرة سبب للرزق الكريم فجاءت الخاتمة مسببة عما قبلها ثم قال تعالى: "**والذين سعوا في آيتنا**

---

(١) المفردات للراغب (٧٦).

(٢) سورة الحج آية: (٥٠-٥١).

(٣) تفسير الطبري (١٣٠/١٧) – تفسير أبي لسعود (١١٣/٦) – والمفردات (٤٢٩) – وحاشية الشهاب على البيضاوي (٣٠٤/٦).

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن أ/ محمد فؤاد عبد الباقي (٣١١-٣١٢) مادة رزق- مؤسسة جمال للنشر – بيروت.

(٥) المفردات للراغب (١١٨).

معاجزين أولئك أصحاب الجحيم" فذكر تعالى صفة للقوم الذين أنزلت فيهم هذه الآيات حيث إنهم قد عجزوا عن آيات الله فعملوا بمعاصيه وخالفوا أمره وأبطأوا الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله وغالبوا الرسول حاسبين أنهم يعجونه ويغلبونه فكان هذا منهم معاجزة لله، فمن كانت هذه صفة لهم فهم سكان جهنم يوم القيامة وهم أهلها وأصحابها سيلازمون نارها(١).

وكان في ختم الآية بذكر الجحيم ملائمة لما ذكر في أولها من المعاجزين ومناسبة لعملهم كما تلاءم ذكر الرزق الكريم في الآية السابقة مع المؤمنين المذكورين في أولها وعملهم، واختير لفظ الجحيم لكونه دالاً على شدة تأجج النار والتهابها (٢).

الموضع الثاني والخمسون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ ﴾(٣).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: أي ما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي إلا إذا تلا وقرأ كتاب الله أو حدث وتكلم ألقى الشيطان في تلاوته أو حديثه فيذهب الله تعالى ما ألقي الشيطان من ذلك ويبطله ثم يخلصه الله تعالى آيات كتابه من الباطل الذي ألقاه الشيطان والله تعالى عليم بما يحدث في خلقه من حدث لا يخفى عليه شيء حكيم في تدبيره إياهم وصرفه لهم فيما شاء وأحب فله حكمة جل وعلا في هذا ليرى من يثبت على الحق من عباده، ويختبر يمتحن الذين في قلوبهم مرض فلا يحدث شيء إلا بعلمه ولحكمة أرادها سبحانه لا نعلمها وإن ظهر لنا

---

(١) تفسير الطبري(١٣١/١٧) – تفسير أبي السعود (١١٣/٦) وحاشية الشهاب (٢٠٥/٦).

(٢) المفردات للراغب (٨٨) بتصرف.

(٣) سورة الحج آية: (٥٢).

بعضها... [1] فلا يتعجب الإنسان من إلقاء الشيطان فإن الله قد يسر هذا أو مكنه منه لحكمة قدرها (ﷻ)، فقد يسر الإلقاء واختبر عباده به ثم أحكم الله آياته ولم يكن للإلقاء أي: أثر لكونه سبحانه عليم بنفي الشبه، حكيم بتيسير الإلقاء على وجه لا يؤثر فيه على من له أدنى بصيرة فهو عالم بما حدث وما سيحدث قبل وبعد الألقاء له حكمة فيهما، وفي تذييل الآية وختمها بذلك إثبات لكبريائه تعالى وتأكيد على أن الأمر كله راجع له فهو الذي مكن من الإلقاء وهو الذي أحكم الآيات لعلة وحكمة أرادها فجاءت الخاتمة علة لما قبلها.

الموضع الثالث والخمسون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: أي ذلك الإلقاء الذي يلقيه الشيطان فتنة أي ضلالة: "**للذين في قلوبهم مرض**" أي شك ونفاق، "**والقاسية قلوبهم**" هم المشركون، "**وإن الظالمين لفي شقاق بعيد**" أي عداوة شديدة.

وقد عبر عنهم بالظلم تسجيلا عليهم أنهم ظلمة وإشارة إلى أن ظلمهم الذي هم عليه وضلالهم كان سبباً لخلافهم وشقاقهم كما أن المشاقة تدل على شدة التناظر فكل فريق في شق وزاوية غير شق وزاوية الآخر، ثم إن أصل الكلمة يدل على الثغرة والفتحة الواقعة في وسط الشيء حيث إنها تلفت الذهن والنظر بمجرد رؤيتها وحال هؤلاء يشابه هذا الحال فمن يطلع عليهم يدرك مباشرة شدة تباعدهم وتنافرهم والمدى الشاسع الواقع بينهم وإن كان الشقاق قد وصف بالبعد على الرغم من أن الموصوف في الحقيقة هو من قام بالشقاق فذلك مبالغة، وإظهار في مدى بعدهم عن الحق وبعد شقاقهم تبعاً لبعدهم عن الحق أيضاً، وإطلاق البعد

(١) فتح القدير (٤٦٢/٣) – تفسير الطبري(١٣٤/١٧) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٥٣).

دون تحديد له إظهار لكونه شديداً وقوياً فلا قدر ولا مدى لبعدهم عن الحق ولهذا كان التعبير بالبعد لكونه لا حد محدود له، ثم فيه إشارة إلى أنهم بعيدون عن الحق بعداً يصعب الرجوع منه إلى الهدى فكانوا كمن ضل عن صحيح الطريق بعداً متناهياً فلا يكاد يرجى له العود إليها(١).

وهذا ما آل إليه هؤلاء فقد ظلموا أنفسهم وغيرهم ثم تشاقوا فبعدوا بهذا بعداً شديداً عن الطريق السليم.

الموضع الرابع والخمسون والخامس والخمسون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآيتين لمضمونهما: المراد في الآية الأولى: وليعلم الذين أوتوا العلم أن هذا الذي أنزله الله وأحكمه من آيات إنما هي حق من عند الله فيؤمنوا به وتخضع له قلوبهم ويصدقوا به إنه تعالى يرد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحق الواضح بنسخ ما ألقي الشيطان فلايضرهم كيد الشيطان وإلقاؤه الباطل فإن لهم نظراً صحيحا وسليما يعرفون به الحق ولن يؤثر فيهم ذلك الألقاء، ولهذا كان التعبير بهداية الله لهم إلى الصراط المستقيم لكونهم أوتوا العلم وعلموا أنه الحق من الله فاستقاموا ولزموا المنهج المستقيم الذي لا عوج فيه بل هم على خط مستو ظاهر، طريق يسير فيه المحق الثابت فإن الله هادٍ الفريق المؤمن إلى الصراط

(١) ينظر: تفسير أبي السعود(٦/١١٤) وحاشية الشهاب (٦/٣٠٧) – وروح المعاني للآلوسي(٥/٤٥٠) والمفردات (٢٦٤) وأيضاً (٥٣).

(٢) سورة الحج الآيتان: (٥٤–٥٥).

المستقيم فذكر الهداية استتبع ذكر المؤمنين لأنها لهم وأتبعها ذكر الصراط الذي هدوا إليه والذين كان مستو لا اعوجاج فيه(١).

ثم أخبر سبحانه في الآية الثانية عن حال هؤلاء المشركين وشكلهم من القرآن المنزل إليهم على الرغم من إحكام الله لآياته ولا يزالون في جدالهم حتى تأتيهم الساعة فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا مثيل له وفي هذا إشارة إلى عظم هذا اليوم وهول ما يجدون فيه وهم يجادلون فيه ولا يؤمنون بوقوعه ويشكون في قرآنهم المنزل إليهم فسيلقون عذاباً في يوم عقيم لا مثيل له كحال العقيم لا يجنون من ورائه فائدة أو نفعًا... ولا نجاة من هذا اليوم كم أنهم لن ينجوا من قولهم الذي كان سبباً لما هم فيه فجاءت الخاتمة مناسبة لما في صدر الآية فجدالهم لا خير فيه وكذلك يوم عذابهم لا خير فيه.

الموضع السادس والخمسون والسابع والخمسون: من سورة الحج: يقول الله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآيتين لمضمونهما: يبين الله تعالى في الآية الأولى أن الاستيلاء التام يوم القيامة له تعالى بلا منازع فهو وحده يحكم بين الناس أجمعين فمن آمن منهم ففي جنات النعيم كائنون مستقرون منغمسون في نعيمها جزاء إيمانهم وعملهم الصالح وقيل في نعيم الجنات وكان العكس للمبالغة، فذكر الإيمان أتبعه ذكر العمل الصالح وكان مصير مَنْ هذا حاله إلى الجنة حيث النعيم والخلود والحالة الحسنة الجميلة والنعمة الكثيرة التي لا يتخللها الذهن والتي سترت عن البشر فلا يعملون لها حدوداً في شكلها وجمالها ... لقصور أذهانهم عن إدراك

(١) ينظر: المفردات (٤١٨) – تفسير أبي السعود(١١٥/٦) بتصرف.

(٢) سورة الحج الآيتان (٥٦-٥٧).

هذا ولستر الله تعالى لها فصدر الآية دل على خاتمتها كما نرى بوضوح وجلاء... (١).

وقد ختمت الآية بقوله: "في جنات النعيم" للدلالة على استغراقهم في نعيم الجنات ولوجهم به فكأنه فيها ينعمون ويفرحون وكأنهم قد دخلوا وكانت لهم جنات مقابلة لأولئك الكفار الذين لا يزالون في خلاف وشك بينما أهل الإيمان قد استكانوا في الجنة وأهل الكفر في العذاب الشديد كما أخبر سبحانه في الآية الثانية هنا بقوله: **"والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين"** فأهل الكفر المجادلون الذين كذبوا بالله ورسوله وكتابه وأصروا على فعلهم واستمروا فيه فلهم العذاب المذل المهين في جهنم وأشار لهم والنظم بأولئك إيذاناً ببعدهم عن ربهم واحتقاراً لهم وإظهاراً لغضب ربهم عليهم وإبعاده إياهم، فأولئك أعد لهم العذاب بل إنه ما وجد إلاله فهو ملك لهم سيقيمون فيه فيذلون بعد تكبرهم وجادلتهم في الله ورسوله ويكون لهم الصغار والمهانة جزاء صنيعهم ولهذا ختمت الآية بقوله: **"لهم عذاب مهين"** بالإضافة إلى ما تشير إليه من استخفاف واحتقار الله لهم وذمه إياهم"(٢).

الموضع الثامن والخمسون والتاسع والخمسون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾(٣).

---

(١) تفسير الطبري(١٣٦/١٧) تفسير أبي السعود(١١٠/٦) والمفردات (٤٩٩) بتصرف واسع.

(٢) تفسير أبي السعود (١١٦/٦) بتصرف.

(٣) سورة الحج الآيتان: (٥٨-٥٩).

مناسبة خاتمة الآيتين لمضمونهما: نلحظ في الآية الأولى أن الله تعالى أفرد المهاجرين بالذكر وخصهم لعظيم شرفهم فمن هاجر منهم في سبيل الله وترك أهله وعشيرته في رضا الله وطاعته وجهاد أعدائه ثم قتل أو مات وهو كذلك ليرزقنهم الله تعالى في جناته رزقًا حسنًا كريمًا وثوابً جزيلاً والله هو خير من بسط رزقه على أهل طاعته وأكرمهم في الدنيا والآخرة ففي ختم الآية بذكر أن الله هو الرازق والتذكير به يتناسب مع ذكر الهجرة في أول الآية فمن هاجر وترك أهله وماله فقد تيقن أن ربه رازقه خيراً ومن جاهد في سبيله وقاتل فقد طلب الأجر والثواب وطلب الشهادة لأنه عالم ومعتد بأن الله رازقه فالرزق لفظ يطلق على العطاء الجاري دنيويًا كان أم أخرويًا(١)، والرازق هو الله تعالى الذي خلق الرزق وأعطاه وهو أيضًا المسبب فهو الذي يسر لهم الهجرة والقتال والاستشهاد بفضله ونعمته ثم هو مجازيهم أيضًا على جهادهم ورازقهم وقد جاءت خاتمة الآية مؤكدة بعدة مؤكدات في قوله: "**وإن الله لهو خير الرزقين**" أولها حرف التوكيد "إنَّ" ثم ذكر اللام ثم ذكر ضمير الفصل العائد على لفظ الجلالة مرة أخرى ... وعلى هذا لن تتردد النفس في البذل في سبيل الله والجهاد بكل ما تملك حتى بنفسها وما لها وروحها لتنال الخير والثواب والرزق الجزيل من الله تعالى وهذا يتناسب تمامًا مع ما ذكر في مضمون تلك الآية الكريمة.

ثم ذكر تعالى ما أعده من الرزق لهؤلاء فقال سبحانه ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم" أي أن هؤلاء المقاتلين والأموات من الذين هاجروا في سبيل الله سيدخلهم مدخلا كريمًا يرضونه وسيكون قريبًا إلى نفوسهم ومطالبهم على أنهم في مرتبة يرون فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهو تعالى عليم بمن خرج في سبيله وابتغاء مرضاته وعليم بدرجات عباده

(١) فتح القدير (٤٦٤/٣) تفسير الطبري(١٣٦/١٧) تفسير أبي السعود(١١٦/٦) والمفردات(١٩٤) بتصرف.

العاملين ودرجات استحقاقهم عليم بأحوالهم حليم عن تفريط المفرطين منهم فلا يعالجهم بالعقوبة أو العذاب[1]، فمع علمه بما قد يكونون عليه من تفريط أو تقصير وبما يكون عليه أعداؤهم إلا أنه حليم عليهم لا يعالجهم بعذاب وهذا يدل على رأفته ورحمته تعالى بهم فقد حكم عليهم وأدخلهم جنات النعيم حيث المدخل الذي يرضون، والرزق الحسن، ومن ثم جاءت الخاتمة: "**وإنَّ الله لعليم حليم**" دل عليها صدر الآية كما يفهم مما ذكر في تفسيرها.

الموضع الستون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾[2].

مناسبة خاتمة الآيتين لمضمونهما: يقول (ﷻ) لهؤلاء المقاتلة المهاجرين أو الذين ماتوا منهم إن الله يعدهم النصر منه على المشركين الذين بغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم والله عفو عن المؤمنين لما بدر منهم من ترجيح الانتقام على العفو والصبر ممن ظلمه، غفور لما بدر منه من ذنب وفي هذا دعوة لهم إلى الصفح والغفران فهم العباد الضعفاء يجب أن يعفوا ويصفحوا فإن الله تعالى القادر ذي السلطان والقوة والجبروت يعفو عنهم ويصفح وهو العظيم الجليل فمن يكونون هم حتى لا يعفوا ولا يصفحوا عما مضى ممن هم في نفس منزلتهم فكان ذكر العفو والغفران مقابلاً لذكر العقاب والبغي في أول الآية فالعفو هو التجافي من الذنب وترك العقوبة والغفران في الأصل الستر وإلباس ما يصون عن الدنس، والمغفرة من الله صون العبد من أن يمسه العذاب أي أنه قد عفا عن ذنوبهم وترك

(١) فتح القدير (٣/٤٦٥) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٦٠).

معاقبتهم عليها ثم صانهم (ﷻ) عن مساس العذاب لهم من أدنى وجه[1] ولم ترد تلك الخاتمة بهذا الأسلوب المؤكد بأنّ واللام إلا هنا وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾[2]، فكانت الخاتمتان بنفس النظم لكونهما واردتين في شأن المؤمنين ومن باب ذكر الضد والمقابل إظهاراً للمعنى الوارد في مضمون الآيتين وتأكيداً على سعة رحمته (ﷻ) وعظيم عفوه حيث يقابل تقصير العبد وبغيه وظلمه بالعفو والصفح والمغفرة.

الموضع الحادي والستون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾[3].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين الله (ﷻ) في هذه الآية الكريمة أن نصره للمبغي عليه بسبب أنه سبحانه قادر على كل شيء ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر[4]، وهذا النصر كائن لأنه تعالى سميع بصير لما يقولون ويفعلون لا يخفى عليه شيء وسيجزيهم على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر وسينصر المبغي عليه ويظهره على الباغي فتلك سنته سبحانه التي لا تتخلف أبداً.

ومن الملاحظ أن النظم الكريم قد عطف قوله: "**وأن الله سميع بصير**" على قوله: "**بأن الله يولج الليل في النهار...**: فاتفقت الجملتان في الإخبار عن بعض

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (١١٦/٦) وأيضاً: فتح القدير (٤٦٥/٣) وأيضاً: المفردات (٣٦٢) بتصرف.

(٢) سورة المجادلة آية: (٢).

(٣) سورة الحج آية: (٦١).

(٤) ينظر: زبدة التفسير(٤٤٢) بتصرف وتفسير الطبري(١٣٧/١٧).

آيات قدرة الله وعظمته في الكون فمن كانت له هذه فهو قادر على النصرة كما اتفقت الجملتان في الاسمية وفي دخول أن الناسخة المؤكدة عليهما وفي كون لفظ الجلالة "الله" اسما لها فهو المولج وهو السميع وإن كان خبر الأولى جملة فعلية وهو قوله: "**يولج الليا**...". والثانية خبرها اسماً مفرداً وهو قوله "**سميع بصير**" بالتنكير للتعظيم فهو سميع بصير لا يعلم لهذا مدى أو كيفية. وقد أخبرت الآية أنه (ﷻ) سميع بصير حتى لا يظنّ هؤلاء الباغين أنه تغيب عنه ذرة في السماوات والأرض ثم إن من علم ما يحدث فيهما من قول وفعل قادر حتماً على نصرته لعباده المؤمنين لأنه مطلع على سرائرهم ونفوسهم ويسمع أقوالهم وأفعالهم ويعلم صدق سرائرهم وإخلاصهم له تعالى ولذلك أعانهم على النصرة لاستحقاقهم لها... ونلاحظ دقة النظم القرآني في التعبير بسميع لأن المراد به علمه بالمسموعات وتحريه بالمجازاة بها[1]، فهو بصير بالأعمال سميع للأقوال مجاز عليها في الدنيا والآخرة، كما أن ختام الآية يتناسب مع مضمونها تماماً فسميع يناسب ظلام الليل وبصير يناسب نور النهار لأن حاسة السمع تعمل في الظلام وحاسة البصر تعمل في النهار فجاءت الخاتمة مناسبة لمضمون الآية، ومؤكدة على قدرته تعالى على النصر وحكمته تعالى فيه فهو سميع مبصر مطلع على أفعال وأقوال عباده وصرح بلفظ الجلالة للتعظيم والتربية وبث المهابة في نفوسهم.

الموضع السادس والستون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾[2].

(١) المفردات (٢٤٢) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٦٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: قوله: سبحانه "**ذلك**"[1] إشارة إلى الوصف الذي وُصِفَ به (ﷻ) من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله تعالى هو الحق الثابت إلهيته وأن كل ما يُدعى إلها دونه باطل الدعوة وأنه لا شيء أعلى منه (ﷻ) شأنًا وأكبر سلطانًا[2]، فهو (ﷻ) كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق النافعة الباقية على الدوام، وقد أنكر الله تعالى عليهم تركهم عبادته سبحانه وهو الحق القادر على كل شيء ويعبدون الباطل الذي لا ينفع ولا يضر وهو تعالى المتعالي عن كل شيء المتنزه عن الأشباه والنظائر العظيم الذي كل شيء دونه ولا شيء أعظم منه ذو الكبرياء المتفرد بالألوهية[3]، ومن ثم جاءت الخاتمة "**وأن الله هو العلي الكبير**" تتناسب مع المضمون.. فكيف يحق لهؤلاء أن يعبدوا سواه وإنما كان هذا منهم لقصور إدراكهم وانطماس بصيرتهم عن إدراك عظمة الله تعالى، وقد جاء التعبير بالاسم معرفًا في قوله: "**العلي الكبير**" للتعظيم وتربية المهابة وبثها في نفوسهم وليظهر بذلك جهل هؤلاء العابدين لغير الله وضلالهم حيث تركوا عباده العلي الكبير العظيم الذي لا مثيل له ولا نظير وعبدوا غيره من الآلهة الباطلة وهذا يتناسب تمامًا مع مضمون الآية.

---

(١) ذلك: اسم إشارة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر أو الشأن ذلك، والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف، ويصح أن تكون كلمة "ذلك" للانتقال من أسلوب إلى آخر" ينظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مج ٩ ص(١٣٧) لمحمود صافي ط. دار الرشيد – دمشق – بيروت.

(٢) تفسير النسفي (١٠٩/٣) دار إحياء الكتب العربية – حلبي، وأيضًا: غرائب القرآن ورغائب الفرقان(٩٥/٥) للنيسابوري ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٩٩٦م.

(٣) تفسير الطبري(١٣٧/١٧) تفسير أبي السعود(١١٧/٦) بتصرف.

الموضع الثالث والستون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين (ﷻ) في هذه الآية الكريمة أنه قادر على كل شيء ومن دلائل قدرته إنزال الماء من السماء على الأرض اليابسة المجدبة فتصبح مخضرة بما ينبت فيها من البنات وهو تعالى اللطيف الذي يصل علمه إلى كل دقيق فيعلم بواطن الأشياء وسرائرها فيسوق إلى عباده الخير ويدفع عنهم الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض وبذور الأرض في بواطنها فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفى على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات، خبير بسرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور وبتدبير عباده وما يصلح لهم وبحاجتهم ومنافعهم[2].

وتظهر مناسبة خاتمة هذه الآية لمضمونها: بجلاء: حيث إن اللطيف يعني العليم والمطلع على اللطائف الدقيقة التي لا تدركها الحاسة والعارف بدقائق الأمور والرفيق بالعباد لهدايته إياهم فهو عالم بما يحدث في الأرض بعد نزول الماء وكيف يؤثر هذا في النبات وكيف ينميه ويظهره ... إلخ، رحيم لطيف بعباده وبحاجتهم للنبات والماء[3]، لطيف بهم هداهم للإيمان به تعالى ثم هو بعد هذا خبير ببواطن أموركم، وخبير بأعمالكم لينظر ماذا تفعلون في نعمه عليكم ولطفه بكم في الإنبات وتيسيره حاجاتكم.

---

(١) سورة الحج آية: (٦٣).

(٢) تفسير أبي السعود (١١٧/٦) وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٤٩٣) بتصرف.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (٤٥٠) بتصرف.

الموضع الرابع والستون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ ﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: لله (ﷻ) ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وعبودية، كل محتاج إلى تدبيره وإفضاله، إن الله لهو الغني الذي لا يحتاج إلى شيء، المحمود في كل حال، ألزم عباده بالحمد على كل حال في السراء والضراء فمن صبر وشكر وحمد فله الأجر والثواب الجزيل، ومَنْ شكر وحمد الله على نعمته وأثنى عليه بالفضيلة وأدى حقها فله الزيادة والثواب، ونلحظ مناسبة خاتمة الآية لمضمونها هنا حيث إن التعبير بالحمد فيه دلالة على أنه يطلق على ما يكون من الإنسان بالتسخير أي أنه تعالى مالك لهم وقد سخرهم لحمده والثناء عليه ويسر لهم هذا وهداهم إليه[2]، وفي هذا فضل منه عليهم ولعل هذا هو السبب في كون البناء للكلمة على صيغة (حميد) للدلالة على شدة الحمد والمبالغة فيه، كما نلحظ أيضًا أن تلك الخاتمة جاءت فيها عدة مؤكدات منها: إنّ، والتصريح بلفظ الجلالة ودخول اللام التي تفيد التوكيد على الضمير وتعريف الغني الحميد ... إلخ وذلك لكون الآيات التي قبلها قد تعرضت للمشركين واتخاذهم أربابًا من دون الله وآلهة باطلة يعبدونها من دونه تعالى فقصرت الغنى واستوجاب الحمد عليه بعده عوامل للقصر تأكيدًا ودفعًا لباطل هؤلاء القوم.

---

(١) سورة الحج آية: (٦٤).

(٢) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني(١٣١) بتصرف.

الموضع الخامس والستون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يذكر (ﷻ) نعمة أخرى سخرها لعباده وهي ما في الأرض من الدواب والشجر والأنهار ... حيث يتصرفون فيها وفق حاجتهم ومنافعهم وكذلك سخر لهم الفلك والسفن تجري في البحر بأمره تعالى وقدرته وتذليلها لهم، ثم إنه يمسك السماء بقدرته كي لا تقع على الأرض فقد خلقها على هيئة وصفة مستلزمة للإمساك فلا تقع إلا بإذنه وذلك يوم القيامة، فدل على مناسبة خاتمة الآية لمضمونها فهو تعالى رءوف بعباده حين هيأهم وسخر ما سبق من أمور لتيسير سبل الحياة والمعاش وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه وإنعاماً عليهم، فالرحمة من الله إنعام وإحسان على الآدميين تفرد بهما الله تعالى كما تفرد في سائر أسمائه وصفاته كما أنها تدل على كثرة رحمته وإحسانه تعالى بعباده وفيها إشارة إلى أن هذا التسخير كان لجميع الخلق في الدنيا ولكنه تعالى رءوف رحيم بعباده المؤمنين في الآخرة فالرحيم لا يختص إلا بالمؤمنين في الآخرة فقط وفيه حض وحث للثبات على الإيمان والإكثار من العمل الصالح ابتغاء وجه الله تعالى[2].

أي أنه (ﷻ) قال: "**إن الله بالناس**" لكون التسخير كائناً منه للجميع المؤمن والكافر فهو رحمان الدنيا والآخرة، رحيم الآخرة فقط فعبر بالناس ليفيد العموم ويفهم من الآية إنكاره عليهم إعراضهم أمام إنعامه وتفضله.

---

(١) سورة الحج آية: (٦٥).

(٢) ينظر: فتح القدير (٤٦٦/٣) تفسير أبي السعود(١١٨/٦) والمفردات للراغب(١٩٢) بتصرف.

الموضع السادس والستون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين الله تعالى أنه هو الذي أحياكم بأن أوجدكم من العدم ثم يميتكم عند انقضاء أعماركم ثم يحييكم بالبعث لمحاسبتكم على أعمالكم، إن الإنسان لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته.

وفي ختم الآية بقوله: "**إن الإنسان لكفور**" من الدقة ما لا يخفى حيث إن لفظة "**إنسان**" دالة في أصلها على نعمه سبحانه التي لا تحصى فمن رحمته (ﷻ) أنه جعل الإنسان يأنس إلى غيره من الناس، ويألفهم ولا قوام ليعضهم إلا ببعض فلا يمكن للإنسان أن يقوم بجميع أسبابه وحده لكنه يسر له التعاون مع غيره على أسباب الحياة ثم جعله يأنس ويعتاد على كل ما يألفه ولكنه بعد هذا ينسى عهد الله وينكره فيكفر بربه ويشرك به فيستر تلك النعم وينكرها ويترك شكرها وهو كفور حيث جمع بين كفر الدين وكفر النعمة... [2]

المواضع السابع والستون والثامن والستون والتاسع والستون: من سورة الحج: يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾[3].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يقول الله تعالى في الآية الأولى: لكل أمة من الأمم الماضية جعلنا شريعة وعبادة أمرناهم بها فهم عاملون بها، فلا ينازعنك –

---

(١) سورة الحج آية: (٦٦).

(٢) ينظر: المفردات للراغب (٢٨) بتصرف.

(٣) سورة الحج الآيات: (٦٧–٦٩)

أيها الرسول مشركوا قريش في شريعتك، وما أمرك الله به في المناسك وأنواع العبادات كلها، وادع إلى توحيد ربك وإخلاص العبادة له واتباع أمره انك لعلى دين قويم، لا اعوجاج فيه.

وختم الآية بقوله: "**إنك لعلى هدى مستقيم**" جاء مناسباً تماماً لمضمونها فهو مظهر لشدة جحود وكفران أولئك المنازعين حيث إنهم يجادلون وينازعون بينما هو (ﷺ) على الهدى والحق، فيدعوه ربه إلى عدم الالتفات إلى المجادلة والاهتمام بالدعوة فقط التي كلف بها بسبب أنه على هدى مستقيم فالخاتمة سبب للأمر بالدعوة ثم يأتي قوله تعالى: "**وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون**" أي وإن أبوا إلا الجدال بعد البيان وظهور الحجة عليهم فكل أمرهم إلى الله وقل لهم متوعداً "**الله أعلم بما تعملون**" من الأباطيل التي منها المجادلة والمنازعة في الدين وهو قادر عليكم مجازيكم على عملكم وجدالكم الذي تودون به الغلبة والنصرة فيهوى بكم ويخذلكم ليكون لكم ضد ما أردتم من الذل والخذلان[1] ويظهر هنا التهديد والوعيد لهؤلاء المجادلين إضافة إلى بث الأمان والطمأنينة في نفوس المؤمنين ودفعاً لهم للتوكل على ربهم فهو عليم بكل شيء، ثم إن في الإعراض احتقاراً وإذلالاً لهم وتسفيهاً لقولهم دلالة على عدم جدواه ونفعه، فالخاتمة تهديد على ما جاء في صدر الآية وهو الجدال في الأباطيل.

ثم يبين الله تعالى في قوله: "**الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون**" أنهم إذا أبوا إلا الجدال والمنازعة فكل أمرهم إلى الله تعالى فهو سبحانه يحكم بين المسلمين والكافرين يوم القيامة في أمر اختلافهم في الدين، فيعلمون حينئذ المحق من المبطل، وفي هذه الآية أدب حسن في الرد على مَنْ جادل تعنتاً واستكباراً، والاختلاف يعني أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٣٩/١٧) فتح القدير للشوكاني (٤٦٨/٣).

أو قوله فمدى الخلاف والبعد بينهما شاسعاً ولا يمكن أن يكون تقابلاً بل هو شامل لكل شيء علم لكل أمورهم ثم إن أولئك المجادلين على الباطل والضلال وهذا لا يكون ضد الحق أو مقابلاً له فيوضع في منزلة متقابلة ومعاكسة بل جعلوا مخالفين لهم تماماً ولم يوضعوا في أي منزلة سواء أكانت للمؤمنين وإعلاء لشأنهم ودينهم وازدراءً بهؤلاء الكفرة واحتقاراً لشركهم وإبعاداً لهم لا عن ربهم فحسب بل وعن عباده الصالحين ومنزلتهم التي أعدها لهم، ثم إن الاختلاف يقتضي التنازع ويحمل معنى المجادلة ولذا قد يستعار لهما ففيه دلالة على التنازع بين أهل الحق والباطل على ما هم فيه يختلفون، ومن ثمَّ ختمت الآية بقوله "**تختلفون**" وهذا مناسب تماماً لمضمونها(١).

الموضع السبعون من سورة الحج: يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يبين تعالى أنه يعلم ما تختلفون فيه لأنه عالم بما في السماء والأرض ومن جملة هذا علمه بمواطن الخلاف وبما هو كائن وعليه فهو المجازي للمحسن بإحسانه والمسئ بإساءته إن هذا العلم كائن في كتاب وهو أم الكتاب الذي كتب فيه ربنا جل وعلا قبل أن يخلق خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة وذلك يسير على الله تعالى هين سهل فلا يستكثرون أن يحدث هذا منه تعالى لكثرة عددهم وكثرة ما يختلفون فيه فسيحكم بينهم في كل ما جلّ ودقّ(٣)، وجاءت خاتمة الآية مناسبة لمضمونها تماماً فهي كالدليل لما قبلها فإن التعبير بقوله "**يسير**" يدل على أن ذلك العلم أمر سهل على الله تعالى الذي لا يعجزه شيء

(١) ينظر في ذلك: المفردات للراغب (١٥٦) وتفسير أبي السعود (١١٩/٦) بتصرف واسع.
(٢) سورة الحج آية(٧٠)
(٣) انظر: المفردات للراغب (٥٥٢) بتصرف وأيضاً: فتح القدير(٤٦٨/٣) بتصرف.

فالتعبير باليسير لأنه يدل على السهولة فالله تعالى يسير وسهل عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وما لم يكن كيف لو كان يكون؟ وقد سطر (ﷻ) ذلك كله في كتاب مطابق للواقع.

الموضع الحادي والسبعون والثاني والسبعون: من سورة الحج: يقول الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يوضح الله تعالى في الآية الأولى هنا أن كفار قريش يصرون على الشرك بالله مع ظهور بطلان ما هم عليه فهم يعبدون آلهة، لم ينزل في كتاب من كتب الله برهان بأنها تصلح للعبادة، ولا علم لهم فيما اختلقوه وافتروه على الله وإنما هو أمر اتبعوا فيه آباءهم بلا دليل فإذا جاء وقت الحساب في الآخرة فيس للمشركين ناصر ينصرهم أو يدفع عنهم العذاب، وفي ذلك إظهار لضعف آلهتهم وحقارتها وأنهم لا يملكون لهم من أمرهم شيئًا ولا يستطيعون لهم حيلة أو يهتدون سبيلاً فقد عبدوهم ابتغاء ذلك ولكن كان لهم الذل والهوان، ولن تكون لهم نصرة الله وعونه لظلمهم وشركهم الذي يصنعون فنصرته لعباده الصالحين ظاهرة بينة في الدنيا ولن تغني عنهم آلهتهم شيئًا وسيكون عجزهم يوم القيامة أثبت وأشد ومن ثمّ جاءت الخاتمة مناسبة للمضمون تماماً[2].

---

(١) سورة الحج الآيتان (٧١-٧٢).

(٢) ينظر: المفردات (٤٩٥) – وأيضاً تفسير أبي السعود(١١٩/٦) بتصرف.

وأما الآية الثانية هنا: فتصور لنا حالة لأولئك الكفار المنازعين العابدين لغير الله فها هم يشركون ويعبدون غيره إذا تليت عليهم الآيات غضبوا وكرهوا تلاوتها وأنكروها بل وكادوا يبطشون بمن يتلوها عليهم لانطماس بصائرهم وعمى قلوبهم عن الحق، وفي تلك الحالة التي هم عليها من قمة الطغيان والتكبر والجبروت يأتيهم الردع والإقناط من الله تعالى والوعيد بالنار جزاء ومصيراً لهم فإن عملهم قد انتقل بهم وحول حالهم إلى هذا المصير والمآل فبئس المصير لبئس العمل فقد حرموا النصير وبئس مصيرهم حيث كانوا يدعون الغلبة ويتجبرون في الأرض ويطغون على عباد الله فكان لهم الذل والصغار(١)، وحُرِمُوا النصرة في الدنيا والآخرة وكان لهم العذاب وسوء الحال والمنقلب بعد العز والسلطان والطغيان في البلاد فقد أعرضوا عن الحق فجاءت الخاتمة طبيعية وملائمة لما اقتضاها ما جاء في صدر الآية ومضمونها.

الموضع الثالث والسبعون والرابع والسبعون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾(٢).

مناسبة خاتمة الآيتين لمضمونهما: يظهر الله تعالى عجز وضعف وذل تلك الآلهة المعبودة من دونه تعالى من قبل الفريق المشرك الكافر فكأنه قال: جعلوا لي شبهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه "**إن الذين تدعون من دون الله**" وهي الأصنام "**لن يخلقوا ذباباً**" لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات "**ولو اجتمعوا له**" أي ولو اجتمع العابدون والمعبودون فلن يستطيعوا خلق

(١) ينظر: المفردات للراغب(٢٩٠) بتصرف واسع.

(٢) سورة الحج الآيتان: (٧٣-٧٤).

ذبابة واحدة "**وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه**" أي إذا أخذ منهم الذباب شيئًا من الأشياء (التي يأكلها من طعامهم) لا يقدرون على تخليصه منه، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف وعن استنقاذ ما أخذه عليهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً واشد منه قوة أعجز وأضعف "**ضعف الطالب والمطلوب**" فالصنم كالطالب من حيث أنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه، والمطلوب الذباب ويحتمل أن يكون المراد: المطلوب وهي الأصنام عاجزة فأعجز منها الطالب منها وهم الذين يدعونها من المشركين، "**ماقدروا الله حق قدره**" أي: ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال "**إن الله لقوي عزيز**" بخلاف آلهة المشركين فإنها جماد لا تنفع ولا تضر ولا تقدر على شيء(١).

فنلحظ في الآية الأولى: أن الخاتمة مفهومة من صدر الآية كما نرى، وفي هذا استهزاء وسخرية بالمشركين واحتقار لهم وإذلال لشأنهم باحتقار آلهتهم واستصغارها وإظهار ضعفها وهوانها فحتى الذباب الضعيف ينال منها ولا تقوى على أن تنال منه أو تسترد حقها المسلوب فهي جماد لا يقوى على الحركة أما الذباب فهو كائن حي قوي عليها ونال منها كيفما شاء وهي ساكنة بلا حراك(٢).

وفي التعبير بالطلب ونسبته إلى الاثنين دقة في النظم حيث إن الطلب دال على الفحص عن وجود الشيء عينا كان أو معنى وفي هذا إشارة ودلالة إلى عظم الضعف والجهل في تلك الآلهة وعابديها فكما أن الذباب يحط عليها باحثًا عما قد يستنقذه وينالـه منها – وهو لا يعلم إن كان سيجد أم لا – فهي أقل صغاراً من هذا

---

(١) زبدة التفسير من فتح القدير (٤٤٤) بتصرف.

(٢) تفسير الطبري (١٤١/١٧) – تفسير أبي السعود (١٢٠/٦) – حاشية الشهاب (٣١٤/٦) بتصرف.

لأنها لا تطلب أصلاً أو تفحص فإنما هي تتخبط تخبط الذباب وهذا كحال عبدتها الذين يتخبطون في عبادتهم ويبحثون عما قد ينفعهم ويعتقدون فيها الخير والنفع الكثير.

إضافة إلى أن النفع غير حاصل فيها بدلالة أن حتى الذباب الضعيف الحقير الشأن يبحث فيها ويتفحصها ليجد فيها ما يستنقذه ويصيبه وهؤلاء يعبدونها ويعظمونها فكانوا أجهل مما يعبدون وأحقر من أضعف المخلوقات ألا وهو الذباب ولم ترد هذه الخاتمة إلا في سورة الحج فقط في هذا الموضع من الآية، بل إن لفظ الطالب والمطلوب لم يرد البتة إلا في هذه الخاتمة فحسب من النظم كله(١).

ثم يقول تعالى عن هؤلاء المشركين: "ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز" أي فمل عظموه (ﷻ) حق تعظيمه وماعبدوه حق عبادته حيث أشركوا به واتخذوا لهم آلهة من دونه ولا عرفوا حق معرفته حين جعلوا تلك الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا حال الضعيف لواهي وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء في الضعف والهوان – جل وعلا عما يقولون علواً كبيراً – وهو القدير القوي على خلق كل شيء من الموجودات والممكنات بأسرها قادر على إفناء كل شيء عن آخره، عزيز غالب على كل شيء على خلاف تلك الآلهة الضعيفة التي لا تملك من أمر نفسها شيئًا، ولو أنهم عرفوا قوة ربهم وعزته سبحانه لما عبدوها ولجأوا لها وهو القاهر لها ولهم ولن يقهره أحد، وفي هذا تهديد ووعيد منه سبحانه بالقهر والذل وهو وحده قادر على ذلك لا يغلب (٢). وبذلك جاءت الخاتمة مناسبة لمضمون الآية فهي دليل طامس على غفلة هؤلاء الكفار.

---

(١) المفردات للراغب (٩٠٥) وأيضاً: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص (٤٢٧).

(٢) تفسير الطبري (١٤١/١٧) – تفسير أبي السعود (١٢١/٦) وأيضاً المفردات للراغب (٤٧٠) بتصرف.

الموضع الخامس والسبعون والسادس والسبعون: من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

مناسبة خاتمة الآيتين لمضمونهما: يبين الله (ﷻ) في الآية الأولى أنه يختار ويصطفي من يشاء من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيل وإسرافيل ويصطفي أيضاً رسلاً من الناس وهم الأنبياء فيختار من الملائكة ملكًا يختصه بإرساله إلى الأنبياء المصطفين من البشر فيرسل الملك إلى النبي، والنبي إلى الناس أو يرسلهم تعالى لما أمرهم به غير ذلك مما يشاء جل وعلا وهو سميع لأقوال عباده وما يقول المشركون في محمد (ﷺ) وما جاء به من ربه، بصير بمن يختاره لرسالته من خلقه عليم بكل شيء من المسموعات والمبصرات لا يخفى عليه شيء في هذا الكون مهما دق وخفى حكيم في كل شيء، فواضح أن صدر الآية قد دلّ على الخاتمة ثم يقول تعالى في الآية الثانية: "**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور**" أي هو سبحانه عالم بما بين أيدي ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ويعلم ما هو كائن بعدهم وبعد فنائهم كما يعلم ما قدموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشر وإليه ترجع الأمور وتعاد لا إلى أحد غيره كما كانت في البدء ثم إنه سيجازي كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر سواء أكانت متقدمة أو متأخرة فكل الأمور معادة إليه تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فالمرجع أصلاً يعني العود إلى ما كان منه البدء[2]. فالشئون كلها معادة إليه وعليه يظهر التهديد والوعيد للكفار بإرجاع الأمر لله والتذكير للمؤمنين بأن مردهم إلى الله تعالى

---

(١) سورة الحج الآيتان: (٧٥-٧٦).

(٢) تفسير الطبري (١٤١/١٧) – فتح القدير (٤٧٠/٣) وأيضاً: المفردات للراغب (١٨٨) بتصرف.

وإظهار العظمة والكبرياء والقدرة له تعالى باصطفائه وخلقه وإرساله وحكمته في هذا كله ثم عود كل شيء إلى بدئه وأمره الأول (إلى الله تعالى) فمن كان كذلك كانت الأمور راجعة إليه ومن هنا جاءت الخاتمة "**وإلى الله ترجع الأمور**" مناسبة وملائمة لمضمون الآية على أتم وجه.

الموضع السابع والسبعون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾[1].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يأمر (ﷻ) المؤمنين بالركوع والسجود والعبادة والتذلل له تعالى والخضوع له بالطاعة وفعل الخير الذي أمروا به فجاءت الخاتمة بالفلاح وهي نتيجة الأعمال الصالحة أي ليفلحوا بذلك فيدركوا ما أرادوه عند ربهم من الخير والثواب الجزيل فيرجون الفلاح ويتمنونه ولا يتيقنون منه وإنما يرجونه من مولاهم الله كما يفيد لفظ "**لعل**" من تمنى الفلاح والفوز منه سبحانه والنجاة على الرغم من العمل والعبادة تأدباً من هؤلاء المؤمنين وحرصاً منهم على الطاعة والعمل والخير وخوفاً من الزلل واعترافاً بالتقصير في العبادة مهما عظمت وكثرت واعترافاً بالتفريط وعدم أداء شكره تعالى كما يجب وكما أمروا به من الحق والخير والفلاح أيضاً لفظ دال على الظفر وإدراك البغية في الدنيا وفي الآخرة الظفر بالعبادات التي تطيب بها الحياة الدنيا وفي الآخرة الظفر بالبقاء والغنى والعز والعلم في الجنة حيث الخلود والنجاة حيث لا موت ولا فقر ولا جهل ولا ذل وفي هذا كله ترغيب ودفع للمؤمنين للاجتهاد والعمل وبذل المزيد من الجهد وكأنهم يقرءون لفظ "**ألفلاح**" فيعودون إلى بدء الآية وينفذون ما

(١) سورة الحج آية: (٧٧).

أمروا به بعد ما نشطوا ونظروا إلى ذلك الظفر الموعود العاجل والآجل فوضعوه نصب أعينهم وشمروا السواعد للعمل[1]. وبذلك جاء ختام الآية ملائماً لمضمونها.

الموضع الثامن والسبعون من سورة الحج: قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[2].

مناسبة خاتمة الآية لمضمونها: يأمر الله تعالى جماعة المؤمنين بالجهاد واستفراغ الطاقة والجهد فيه خالصاً له تعالى من دون غيره، فقد اختارهم لنصرة دينه واصطفاهم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله ولم يجعل عليهم ضيق وشدة في هذا الدين أو مشقة بل وسّعه كملة أبيهم إبراهيم فليفعلوا فعله وليلزموه "**هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس**" أي سماكم الله مسلمين في الكتب السابقة وفي القرآن سيكون محمد (ﷺ) شاهداً عليكم بالتبليغ وأداء الرسالة لتكونوا أنتم شهداء على الناس بتبليغهم الحق وإيصاله لهم وبأن رسلهم قد بلغتهم الحق وأوصلته لهم ثم يأمرهم تعالى بأداء الصلاة والزكاة والتوكل عليه والاعتصام به في كل الأمور فنعم الولي الله ونعم الناصر المعين[3]. وهو لمن أقام ما أمره به واستعان بالله واعتصم وتمسك به فمن جاهد وصلّى وزكّى واستعان بالله وتوكل عليه فله النصرة من الله على من بغاه بسوء وهو له معين على كل شيء لأنه قد اعتقد به وعبده وعمل بأوامره تعالى، ثم إن تلك العبادة من جهاد وصلاة إنما هي لنعم المولى ونعم النصير[4].

---

(١) تفسير الطبري(١٤٢/١٧) – فتح القدير (٤٧٠/٣) – المفردات(٣٨٥) بتصرف.

(٢) سورة الحج آية: (٧٨).

(٣) تفسير أبي السعود(١٢٢/٦) – فتح القدير(٤٧١/٣) – أضواء البيان (٧٤٨/٥) بتصرف.

(٤) ينظر: المفردات (٥٣٣) بتصرف

ولم يأت ذكر هذه الخاتمة في النظم القرآني إلا في موضعين الآية السابقة من سورة الحج وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[1].

وقد كانت الآيتان واردتين في سياق الحديث عن القتال وجهاد المشركين ولا يخفى ما في الجهاد من مشقة وتكلفة بل إنه هو سنام الدين وأعظم أعماله فهو شديد على النفس، وفي التذكير بولاية الله ونصرته لعباده في الدنيا والآخرة دفع للقتال وشحذ للهمم وقطع لسبيل التراجع والتردد والخوف من النفوس إذا ما تذكرت أن الله ناصر ومعين لها فتثق وتتوكل عليه تعالى فهو لا يضيع من تولاه ولا يخذل أو يقهر مَنْ ينصر دينه[2]، فإذا تولى (ﷻ) أحداً كفاه كل ما أهمه وإذا نصر أحداً أعلاه على كل مَنْ خاصمه.

ونلاحظ العطف الظاهر في جملتي الخاتمة "**نعم المولى**" و"**نعم النصير**" المتفقتان في الإنشائية غير الطلبية حيث اتفقا في أسلوب المدح واتفقتا في الإسناد لنعم والاشتراك في المدح وبينهما مناسبة تامة وواضح أن الآية كلها تدل على تلك الخاتمة فكلها نِعَمٌ تستحق المدح والثناء، وهكذا تأتي خواتيم الآيات مناسبة لما قبلها لتؤكد الغرض أو تسوق العلة أو توضح المراد.

(١) سورة الأنفال آية (٤٠).

(٢) تفسير أبي السعود(٤/٢١).

الخاتمة

وتتضمن: ثمرة البحث ونتائجه – فهرس المراجع والمصادر

أولاً: ثمرة البحث ونتائجه:

- بعد التعايش مع هذا البحث "التناسب البليغ بين خواتيم آيات سورة الحج وما تتضمنه تلك الآيات" فإنه يمكن استخلاص بعض النتائج والثمرات المهمة على النحو التالي:

١- أن معرفة وجه التناسب والارتباط بين مضمون الآية القرآنية وما ختمت به تلك الآية أمر في غاية الأهمية حيث يؤكد على حقيقة جليلة وهي أن أجزاء الكلام في كل آيات القرآن الكريم يأخذ بعضها بأعناق بعض كمثل بناء محكم متلائم الأجزاء، وقد تجلى لنا ذلك في هذا البحث من خلال سورة الحج كنموذج يوضح تلك الحقيقة وهي مدى التناسب البليغ بين خواتيم آيات السورة الكريمة وما تضمنته تلك الآيات...

٢- تبين لنا أن المعاني والعبارات والمضامين الواردة في آيات القرآن كله لترتبط ببعضها ارتباطًا وثيقًا فتتصل الكلمة بما قبلها ويرتبط أول الآية بآخرها وترتبط الآيات ببعضها بل وتتأثر السورة ببعضها في فواتحها وخواتيمها حتى يظهر هذا الكتاب العظيم على هذه الصورة الرائعة في الدقة والنظم والترابط والاتحاد كالقطعة الواحدة.

٣- أنه لما كانت خواتيم آي القرآن الكريم عامة تمتاز بأنها تقرر الغرض العام والخاص من الآية الكريمة أو تؤكده أو تحققه أو تجعله منظمًا مع ما قبلها أو ما بعدها في تناسق عجيب وتوقيع لطيف لا تكلف فيه ولا تعسف أكدّ ذلك على التناسب البليغ بين تلك الخواتيم وبين مضامين تلك الآيات.

٤- تبين لنا من خلال التعايش مع آيات سورة الحج أن خواتيم آياتها جاءت ملائمة ومناسبة لما قبلها لتؤكد الغرض أو المضمون أو تسوق العلة والسبب أو لتجيب عن سؤال مقدر قد فُهِمَ من المضمون أو لتوضيح المراد وتفسر المبهم أو تزيل الإشكال... مما يؤكد لنا أن القرآن كله منظومة متكاملة النسيج آخذ بعضها ببعض تلو الآخر فلا يرد ألبتة على خاطر القارئ أن يشعر بأي فجوة أو خلل وإنما يردد بلسان الحال قوله تعالى:" ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

٥- أن النظم القرآني لا يختار الألفاظ جزافاً، فلا يفضل اللفظة الرقيقة الدمثة لمجرد الدماثة والرقة ولا اللفظ المتوعر الخشن إيثاراً للتوعر والخشونة بإطلاق بل إن رقة الألفاظ وجزالتها يخضعان لنوع المضامين والمعاني الجزئية ونوع الغرض المقصود من هذه المعاني ولذلك وجدنا بعض خواتيم آيات ورد الحج فيها رقة ولين وذلك حيث تقصد المعاني اللطيفة الرحيمة الملائمة لما يناسبها من المضامين والأغراض والمقامات كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[2] هذه الآية أيضاً: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِۚ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾[3]، وتخشن الألفاظ وتشتد الخاتمة حين تراد المعاني القاسية الغليظة وفقا لما تقتضيه الحال ويستوجبه مقصد الآية ومضمونها ومن ذلك قوله

(١) سورة هود آية: (٢).

(٢) سورة الحج آية: (٥٠).

(٣) سورة الحج آية: (٥٦).

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾[1] وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾[2]

وختاماً فالله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يعيننا على خدمة كتابه العظيم، والتمسك بنهجه القويم، إنه أكرم مسئول، وأفضل مأمول لله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين لله

(١) سورة الحج آية: (٥١).

(٢) سورة الحج آية: (٥٧).

ثانيًا: المراجع والمصادر

القرآن الكريم:

١- تفسير الرازي – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط الرابعة.

٢- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي. ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط أولى ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٣- روح المعاني للآلوسي تصحيح محمد حسين العرب – دار الفكر –بيروت ١٩٩٧م+ روح المعاني للآلوسي– ط أولى – المطبعة الأميرية ببولاق – مصر.

٤- تفسير البحر المحيط لأبي حيان. ط دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت ط ثانية ١٤٠٣هـ.

٥- تفسير القرطبي. ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ١٩٦٥-١٩٦٦م.

٦- تفسير أبي السعود – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٧- فتح القدير للشوكاني ط دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت.

٨- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ط دار الفكر– بيروت. وط دار الكتاب اللبناني بيروت ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

٩- التحرير والتنوير لابن عاشور ط الدار التونسية للنشر.

١٠- تفسير القاسمي ط عيسى الحلبي– تعليق وتصحيح/ محمد فؤاد عبد الباقي.

١١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ط أولى مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الدكم الهند + ط بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية.

١٢- حاشية الشهاب على البيضاوي ط دار صادر بيروت.
١٣- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ضبط وتخريج الشيخ زكريا عميران.
١٤- أسباب النزول للسيوطي- المكتبة التوفيقية- الحسين تحقيق/ ياسر صلاح عزب.
١٥- زبدة التفسير من فتح القدير د/ محمد سليمان الأشقر ط دار المؤيد للنشر والتوزيع ط ثانية ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
١٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ السعدي ط مؤسسة الرسالة.
١٧- تفسير الطبري ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
١٨- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للشيخ زكريا الأنصاري- ط أولى بيروت- عالم الكتب بتحقيق/ الصابوني سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
١٩- إعراب القرآن للعكبري – تحقيق علي محمد البجاوي طبع بدار إحياء الكتب العربية حلبي.
٢٠- المحرر الوجيز لابن عطية ط أولى الدوحة قطر ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م تحقيق/ عبد الله الأنصاري- السيد عبد العال.
٢١- تفسير الواحدي البسيط مخطوطة دار الكتب تحت رقم (٥٧) تفسير دار الكتب.
٢٢- حاشية الجمل على الجلالين – ط دار إحياء الكتب العلمية – حلبي.
٢٣- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق/ محمد سيد كيلاني – دار المعرفة بيروت لبنان.
٢٤- تفسير النسفي – دار إحياء الكتب العربية – حلبي.

٢٥- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي ط دار الرشيد د مشق بيروت.
٢٦- البرهان في علوم القرآن وصرفه للزركشي بتحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الفكر بيروت ط ثالثة ١٤٠٠هـ.
٢٧- شروح التلخيص للقزويني ط دار الكتب العلمية بيروت
٢٨- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي المطبعة الأزهرية بمصر – ط ثانية ١٣٤٣هـ– + ط ثالثة ١٣٧٠هـ مصطفى البابي الحلبي.
٢٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دار صادر للطباعة بيروت.
٣٠- شرح العقيدة الطحاوية تحقيق/جماعة من لعلماء – وشرح أحاديثها / محمد ناصر الدين الألباني – المكتب الإسلامي للطباعة والنشر – بيروت الرابعة ١٣٩١هـ.
٣١- أساس البلاغة للزمخشري تحقيق/ عبد الرحيم محمود ط دار المعرفة بيروت سنة ١٤٠٢هـ مطابع يوسف.
٣٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن أ/ محمد فؤاد عبد الباقي مؤسسة جمال للنشر –بيروت.
٣٣- أسباب النزول للسيوطي – المكتبة التوفيقية الحسين تحقيق/ ياسر صلاح عزب.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث بالعربي	١٤٢٧
ملخص البحث بالإنجليزية	١٤٢٩
مقدمة	١٤٣١
التمهيد: **التعريف بأهم المصطلحات الواردة في عنوان البحث**	١٤٣٣
أولاً: المقصود بالتناسب والمناسبة بإيجاز	١٤٣٣
ثانياً: أهمية هذا العلم	١٤٣٣
ثالثًا: أنواع المناسبات	١٤٣٣
رابعًا: المراد بالخواتيم	١٤٣٥
خامسًا: تعريف موجز بسورة الحج	١٤٣٦
بيان فضل سورة الحج	١٤٣٨
الخاتمة	١٥٠٨
المصادر والمراجع	١٥١١
فهرس الموضوعات	١٥١٤